الجـزء الأول

علم التاريخ

نشأته ـ وتطوره ـ ووضعه بين العلوم الأخرى

مباحث هذا الجـــزء

الفصل الأول:

علم التاريخ ـ نشأته وتطوره.

الفصل الثانى:

التاريخ عند العرب.

الفصل الثالث:

التاريخ بين العلوم الأخرى.

الفصل الرابع:

العلوم الأخرى الوثيقة الصلة بعلم التاريخ.

الفصل الخامس:

الصفات الواجب توفرها فى المؤرخ

الفصل الأول

علم التاريخ
نشأته، وتطوره

مباحث هذا الفصل:

- لفظ تاريخ ومدلوله.
- أسفار العهد القديم والتواره وأهميتها فى أخبار الخليقة الأولى.
- الأسطورة، والحكاية الشفهية كبداية طبيعية لتناول الانسان لأخبار آبائه وأجداده.
- الدين وأثره على الرواية التاريخية.
- محاولات تدوين الأحداث فى مصر القديمة، وعند الأشوريين والبابليين.
- التاريخ عند الأغريق والرومان.
- خضوع التاريخ للاهوت.
- تطور التاريخ فى أواخر العصور الوسطى.
- ظهور روح النقد فى عصر النهضة.
- حركة الإصلاح الدينى فى أوربا وأثرها على التاريخ.
- فكرة القومية وأثرها فى الإهتمام بالمصادر المحلية.
- التوسع الإستعمارى الأوربى وأثره على التاريخ.

- التغير الاجتماعى، والسياسى فى أوربا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وأثره على التاريخ.

- القرن الثامن عشر - ومؤرخو الثورة فى فرنسا، وفى باقى أوربا.

- المؤرخون الألمان رواد مدرسة النقد والتحليل.

- القرن التاسع عشر، والاهتمام بجمع المصار التاريخية ونشرها.

التاريخ. هو تعريف بالوقت، وقد إختلف العلماء فى أصل لفظ «تاريخ» فذهب البعض إلى أنه لفظ عربى خالص، وذهب اخرون إلى أنه لفظ فارسى، وأن العرب أخذوه عن الفرس. والتاريخ على العموم يعنى (التوقيت) أى تحديد زمن الأحداث وأوقات حدوثها(١).

وقد أشار السخاوى لذلك فذكر «أن التاريخ فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث توقيتها، وموضوعه الإنسان، والزمان»(٢).

وقد مرت الكتابة التاريخية فى أطوار متعددة.

ففى وقت كان التاريخ مُجرد سرد للأحداث، أو تدونها كما هى دون نقد أو تمحيص أو محاولة للتثبت من صحتها.

وأول صورة دُون بها التاريخ كانت فى صورة قصصية.

ولعل أقدم التواريخ المدونة هى ما جاء فى أسفار (التوارة والعهد القديم)، حيث ذكرت الأخبار الأولى عن الأحداث التى مرت بالخليقة منذ نشأتها الأولى، (كقصة خلق الانسان، وقابين، وهابيل، والطوفان ..).

وتدل عناوين أسفار العهد القديم على الأحداث والأخبار التى تناولها كل سفر ـ فمثلاً سفر الملوك الأول والثانى تناول أخبار ملوك إسرائيل ويهوذا، وسفر الخروج يتناول على الخصوص خروج بنى اسرائيل من مصر، والمزامير تتعلق بمزامير داود النبى(٣).

وهكذا تمدنا الكتب السماوية بالمعلومات التاريخية الأولى عن حياة الإنسان، وعن علاقاته بالكائنات الأخرى، بل وعن علاقات الانسان بأخيه

---

(١) انظر لسان العرب ـ مادة (ارخ)
ـ وكذلك نصار، حسين: نشأة التدوين التاريخى عند العرب ص ٣
(٢) السخاوى: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٧
(٣) اسفار العهد القديم ٢٩ سفراً

الانسان منذ أن بدأت تتكاثر الخليقة على الأرض.. باعتبار أن الأرض هى المسرح، وأن التاريخ هو التمثيلية التى تدور فصولها على هذا المسرح عبر العصور بحيث يمكن أن نقول أن التاريخ موضوعه الانسان والزمان(١).

وقد بدأ إهتمام الانسان بالتاريخ منذ فجر الخليقة.

فقد لعبت الأساطير (Legends) والحكايات (anecdotes) دوراً هاماً فى حياته، وكانت هذه بداية طبيعية التاريخ. إذ يحكى الإنسان لأبنائه وأحفاده أخبار الأجداد والسلف، وبالطبع إمتزجت فى هذه القصص الحقيقية بالخيال، وبذا بدأ الإنسان يهتم بأخبار أسلافه السابقين.

وقبل أن يعرف الانسان الكتابة عبر عن هذه الأفكار التى جالت بذهنه بالرسم والنقش على الحجر مستخدما فى ذلك ما أمكنه إستخدامه من الات وأدوات ومواد، ومن ثم ترك لنا الإنسان الأول على جدران الكهوف، وفى المغارات وغيرها من الأماكن التى سكنها ما يمكن أن نستدل به عن بعض أفكاره، وعن نظام حياته ومعتقداته.

ومع تقدم الأنسان تطورت حياته، كما تقدمت وسائل التعبير عن أفكاره ومعتقداته، وأسلوب حياته حتى عرف الكتابة، فكانت هذه طفرة عظيمة فى مجال تسجيل الأحداث والأفكار والمعتقدات.

ولعب الدين دوراً هاما فى تكييف حياة الانسان وتصرفاته، فعلاقته

---

(١) عكف عدد من المؤرخين والفلاسفة ـ الألمان بالذات على دراسة اثر القصص الدينى فى الكتابة التاريخية، وقد تباينت اراؤهم حول هذه العلاقة بين الأساطير الدينية وبين التاريخ كعلم نذكر منهم على سبيل المثال:

شلينج (Schelling) ـ الذى كتب «مقدمة فى فلسفة الأساطير».

كاسيرر (Cassirer) ـ الذى كتب فى «التفكير الاسطورى».

د. شتراوس (Dr. Strauss) ـ الذي كتب فى ة يسوع المسيح بحث نقدى.

لمزيد من التفصيل انظر:

كاسيرر، ارنست. فى المعرفة التاريخية ص ١٠٨ وما بعدها

بخالقه، ونظرته للقوة العليا الخفية التى تُدير الكون، ورهبته من الأشباح والأرواح غير المرئية، والخوف من الموت، ومحاولاته للحفاظ على حياته، وما خلقه هذا من تصورات وخيالات فى عقله - كل هذا كان له أثره فى سلوك الإنسان، وفى معاملاته وعبرّ عن ذلك بمختلف وسائل التعبير المتاحة له.

وهكذا يمكن أن نقول إن اهتمام الانسان بمعرفة ماضيه، وأخبار أسلافه يرجع إلى اقدم العصور.

وحرص الإنسان - كما ذكرنا - على أن يُلم أبناؤه وأحفاده بأخبار أسلافهم، وكطبيعة البشر لم تخلُ هذه الأخبار من الإضافات والتحريف مما يضفى على هؤلاء الأسلاف ثوبا من البطولات والتمجيد.

ولعل الغرض الأساسى الذى من أجله حرص الناس على أن يتناقلوا قصص الأحداث التى حدثت فى الأزمنة القديمة هو - إلى حد كبير - نفس الغرض الذى نهدف إليه اليوم من دراسة التاريخ .. الا وهو اتخاذ العظة من الماضى، وتوضيح الحاضر، والنظر للمستقبل فى ضوء هذا الماضى بعظاته وعبره.

ومن أقدم **المحاولات لتدوين التاريخ** تلك التى قام بها الكاهن المصرى القديم مانيثون (Manetho) الذى عاصر بطليموس الأول، وبطليموس الثانى، ووضع تاريخا لقدماء المصريين استمد مادته من مصادر مصرية قديمة، وكان ذلك على نظام (الحوليات) أى تدوين الحوادث وترتيبها تايخياً عاماً بعد عام، وللأسف فُقد مؤلف مانيثون هذا فلم تبق منه الا نبذ قليلة.

كذلك محاولة كاهن اخر بابلى عاش حوالى ٢٥٠ ق.م هو بيروسوس (Berossus) كتابة تاريخ بابل باليونانية مستنداً على مصار بابلية قديمة، وقد ضاع مؤلفه أيضاولم تصلنا منه إلا نبذ بسيطة متضمنة فى بعض الكتب الأخرى التى أخذت عنه(١).

---

(١) هرنشو: علم التاريخ (ترجمة عبدالحميد العبادى) ص ١٦.

وحذا بعض **الأشوريين، والعبرانيين**، حذو المصريين والبابليين فى هذا المجال فكتبوا عن تاريخ اشور وبابل.

أما عن **الاغريق وتاريخهم** ـ فلدينا العديد من الأسماء اللامعة التى تعرضت للكتابة عن أصلهم، وعن النزاع بينهم وبين الفرس، والنزاع بين المدن الإغريقية المختلفة كحرب البلوبونيز بين اثينا واسبرطة وغيرها من الحروب.

لقد شغف **الإغريق** بالبحث أو بما يسمونه باليونانية (Istoria) أى تاريخاً حتى بزوا غيرهم فى هذا الميدان. فكتب **هكتيوس** (Hecateus) فى القرن السادس ق. م عن أصل الشعب الإغريقى، كما كتب **هيرودوت** (Herodotus) الذى لُقب بأبى التاريخ فى القرن الخامس ق.م عن النزاع بين الإغريق والفرس، وبعده كتب ثوكوديديس (Thucydides) عن حرب البلوبونيز بين اثينا واسبرطة.

وتميزت كتابات هؤلاء المؤرخين الأغريق بالبعد إلى حد كبير عن الخرافات والاساطير، وبمحاولة الوصول إلى تفسير منطقى للأحداث(١).

ومن أبرز كتابات **الأغريق الأليادة، والأوديسة** التى نُسبت إلى **هوميروس**(٢).

ومن الذين أرخوا للرومان، ومدنهم، وفتوحهم بوليبيوس (Polybius) الأغريقى فقد عاش فى روما فى القرن الثانى ق.م، وكتب عن المدينة الرومانية وما وصلت إليه من قوة، وتحدث عن فتوح الرومان، ونظامهم السياسى(٣).

---

(١) Collingwood: The Idea of History, Pp. 17 and 28-31
ـ كذلك هونشو: مرجع سابق ص ١٧ وما بعدها

(٢) انظر ج. ح. كراون: صلة العلم بالمجتمع (ترجمة حسن خطاب)، وقد نفى ولف (F. A. Wolf) الألمانى فى عام ١٧٩٥ ما هو شائع من أن الألياذة والأوديسة كتبها هوميروس وذهب إلى انها من عمل جماعة من الشعراء فى فترات زمنية متباعدة ـ وسنتعرض لذلك فيما بعد.

(٣) Collingwood: Op. Cit., PP. 33-36.

وقد ظل تاريخ الرومان تتناوله اقلام مؤرخى الأغريق باليونانية لفترة طويلة.

لكن كتب يوليوس قيصر (Julius Caesar) فى عام ٥١ق.م كتابه المشهور عن الحرب الغالية (The Gallic War) تناول وقائع هذه الحرب التى انتهت بضم بلاد الغال إلى الدولة الرومانية، كذلك له كتاب اخر عن الحرب الأهلية التى انتصر فيها على بومبى.

ثم تأتى كتابات ليفى (Livy) وتاسيت (Tacitus). فقد كتب الأول تاريخا كاملا لروما تحدث فيه عن فتوحاتها وتغنى بمفاخر الجمهورية الرومانية، وجمع كل المتواتر عن تاريخ روما ونسقه فى دراسة متكاملة لتاريخ الجمهورية الرومانية. وتستحق مقدمة كتابه هذا الدراسة والتأمل فقد اوضح فيها الهدف من كتابه، وذكر أنه رجع بالرومان لتاريخهم القديم ليوضح لهم كيف ان عظمة روما ترجع للأزمنة الأولى التى كان فيها المجتمع الرومانى يتسم بالبساطة والوضوح(١).

أما تاسيت فقد كان يهدف فى كتاباته إلى الإصلاح الإجتماعى اكثر من تناول التاريخ للتاريخ ذاته. فقد حرص فى (حولياته) على أن يُعطى صورة لما وصل إليه المجتمع الرومانى من تدهور خلقى. وقارن بين ذلك وبين المزايا التى يتحلى بها البرابرة الذين كانوا حديثى عهد بالاتصال بالإمبراطورية الرومانية.

ولما أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطرية الرومانية فى عهد الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧م) تأثر التاريخ والكتابة التاريخية بهذا الحدث الهام، فقد تحول التاريخ إلى أيدى القساوسة والرهبان، وصار التاريخ خاضعاً للاهوت مُسخراً له، وتركز فى الحوليات التى لاتخرج عن تقييد للحوادث وربطها بأعياد الفصح وغيره من الأعياد المسيحية.

---

(١) Collingwood: Op. Cit., P. 36.

لكن حين ضعفت الإمبراطورية الرومانية وإندثرت معالم الحضارة الأوربية ـ احتفظت الأديرة والكنائس بقبس من النور، كما أن الإهتمام بتاريخ الكنيسة، والأحداث المرتبطة به أدى إلى نظرة جديدة للتاريخ، فقد اعتبروه سجلاً حافظا للعلاقة بين الإنسان وخالقه.

لقد تغيرت النظرة التاريخ بتحكم رجال الدين فيه. فنظروا للأحداث لا على أنها نتيجة تصرف الإنسان وسلوكه لكن على أنها إرادة الله ومشيئته التى تسير الكون. فظهور روما وعظمتها ـ مثلاً ـ لا يرجع لجهود الرومان أنفسهم لكن لمشيئة الخالق، وحين تنتهى الحكمة الالهية من وجودها تضمحل وتزول

وفى أواخر العصور الوسطى حدث تطور يذكر فبدأ الكتاب يدققون فيما يذكرون من حوادث، ويرجعون فى الحوادث المعاصرة لأقوال من اشترك فيها أو شاهدوها.

ففى فرنسا ظهر تاريخ نانت (Chronicle of Nantes) تناول أحداثا تمتد حتى عام ١٠٤٩م، وفى ألمانيا ظهر التاريخ الانجلو سكسونى (Anglo-Saxon Chronicle) تناول الأحداث حتى عام ١١٥٤، وفى انجلترا ظهر التاريخ الأكبر لماثيوباريس (Mathew of Paris) وهو راهب انجليزى اعتنى بتسجيل ماوصل إليه من أخبار العالم المتمدن فى الغرب والشرق حتى عام ١٢٥٥(١).

وفى القرن الرابع عشر ظهرت بعض الكتب التاريخية التى تميزت بتحكيم العقل ورفض الأساطير التى تتنافى مع المنطق، يظهر ذلك بوضوح فى كتاب فلافيوس بلوندوس (F. Piondos) الإيطالى وهو معاصر لإبن خلدون (١٣٨٨ ـ ١٤٦٣)(٢).

كذلك مذكرات (Memoirs) المؤرخ الفرنسى فيليب دى كومين (Philippe

---

(١) فرنشو: مرجع سابق، ص ٣٠

(٢) رستم، أسد: مصطلح التاريخ ص ب (فى المقدمة)

de Commines) ـ وهو الملقب فى فرنسا بأبى التاريخ الحديث، فقد إستفاد من تقلبه فى كثير من المناصب السياسية فى كتابة مذكراته عن الحوادث حتى نهاية القرن الخامس عشر(١).

وكان تأثر التاريخ بالنهضة الأوربية عميقاً وقوياً ـ فقد ترتبت على النهضة نتائج منها:

١ ـ صبغ التاريخ بالصبغة الزمنية، وتحول تدوين شؤون الدولة من رجال الدين إلى العلمانيين.

٢ ـ تغيرت الكتابة التاريخية كنتيجة طبيعية لإحياء الدراسات القديمة، وإتجاه الإيطاليين بالذات إلى منابع هذه الحضارة القديمة أى إلى اللاتينية والاغريقية.

٣ ـ ظهور روح النقد والتمحيص والتحليل للمراجع والمصادر الأصلية، وإستبعاد ما لايثبت صحته منها.

وهكذا عاد إلى الظهور البحث الحر، والنقد بعد أن تحطم ما كانت تفرضه الكنيسة على العقول والأقلام والكتابات من حجر وقيد.

ولعل البداية كانت القنبلة التى فجرها لورنزو فلا (Lorenzxo Volla) (١٤٠٦ ـ ١٤٥٧) بكتابه منحة قسطنطين (Donation of Constantine) الذى أثبت فيه بطلان هبة قسطنطين للبابوات، وأن الأمر لايعدو أن يكون تزويراً أفتعل فى روما بعد خمسة قرون من التاريخ الوارد فى الوثيقة. وكان البابوات قد إستندوا إلى هذه الوثيقة فى صراعهم ضد الأباطرة لإثبات حقهم فى السلطة الزمنية اذ أن هذه الهبة كانت تدعى أن قسطنين ـ عندما نقل عاصمته إلى القسطنطينية ـ منح البابوات الحكم الزمنى فى إيطاليا، وظلت هذ الفكرة مسيطرة طوال العصور الوسطى، واستند إليها البابوات لإثبات إدعاءات لهم.

---

(١) توفى عام ١٥٠٩م.

لكن لاورنزو فلا اثبت أن هذه الإدعاءات لاتقوم على أساس صحيح، وأن الوثيقة الأصلية التى تتعلق بهذه المنحة لا وجود لها، وبالأضافة إلى ذلك اشار إلى انه لم يعثر على أية عملة بابوية تحمل ذكرى هذا الحادث الهام.

وقد أقام هذا الحدث حين نُشر وذاع رجال الدين وأقعدهم ـ لكنه على كل حال شجع على ذيوع روح النقد، فأصبح من المألوف أن يُثير المؤرخون والكتاب الشك فيما كان الناس يعتقدون أنه من الأخبار المسلم بها التى لايجب أن توضع موضع المناقشة والجدل.

فقد حذا حذو لورنزو فلا عدد كبير من مؤرخى عصر النهضة فى إيطاليا نذكر منهم على سبيل المثال نيكولا مكيافيلى (Nicola Machiavelli) (١٤٦٨ ـ ١٥٢٧) فقد كتب كتابا عن بخ فلورنسه، كما كتب كتابه المشهور «الأمير» (It Principe) ضمنه اراءه التى إكتسبها نتيجة خبرته الواسعة بسياسة الجمهوريات الإيطالية وأوربا فى عهده، وقد وضح فيه كيف أن إيطاليا بحاجة إلى أمير مستبد قوى جرىء يوحدها ويجعل منها دولة عظيمة(١)

ولما انتشرت حركة النهضة خارج إيطاليا كان لها أيضاً اثرها على التاريخ والمؤرخين فظهر بوليدور فرجيل (Polydore Virgil) (١٤٧٠ ـ ١٥٥٠) الذى كتب عن تاريخ انجلترا فى عهد هنرى السابع.

وكانت لحركة الإصلاح الدينى التى ترعمها مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) اثارها العميقة على الدراسات الفلسفية عامة والتاريخ بوجه خاص ـ فقد أشاع لوثر ـ أثناء تدريسه الفلسفة فى جامعة وتنبرج (Wittenburg) سنة ١٥٠٨ واللاهوت فى عامى ١٥١٥، ١٥١٦ ـ روح النقد والتحليل حين دعا الناس لدراسة الكتاب المقدس بأنفسهم دون الاعتماد على تفاسير رجال الدين أو الأخذ

---

(١) لمن يريد التوسع فى دراسة المبادىء التى نادى بها مكيافلى ـ انظر

Morley, Ji Machiavelli

Schevill, I A History of Florence وكذلك

بها على أنها حُجج مسلم بها. وقد نشر رأيه بصراحة فى أن الكنيسة قد إنحرفت عن طريقها السوى الذى كانت تسيرعليه فى عهد المسيح والرسل الأوائل وأن ما يصدر عن البابوية من أحكام قد يكون صوابا وقد يكون خطأ، هذا بالإضافة إلى الرسائل المشهورة التى نشرها لوثر عن الأسر البابلى للكنيسة (The Babylonish Captivity of the Church)[١].

فقد أدى هذا لأن يُصبح للتاريخ قيمته ـ فقد دفع للبحث التاريخى بهدف الوصول للحقيقة فى هذا الصراع بين المتمسكين بالكاثوليكية والداعين للآراء الجديدة. والحقيقة أننا لم نشهد تهالكا على نبش أكداس التاريخ الكنسى المهجور كالذى حدث بسبب هذا التصادم بين المتنافسين الكاثوليك والبروتستانت.ولم يصل البحث التاريخى من القوة والأهمية كما وصل خلال هذه المعارك.

وكانت حصيلة هذا ظهور العديد من الكتب والأبحاث ونشر العشرات من الوثائق. فكتب روبرت بارنز (Robert Barnes) (١٤٩٥ ـ ١٥٤٠) عن «سير بابوات روما»، وكتب جون فوكس (John Foxe) (١٥١٦ ـ ١٦٨٧) كتاب الشهداء (Book of Martyrs) ، ونشر ماثياس فلاكيوس (Mathias Flacius) كتابه عن تاريخ الكنيسة المسيحية منذ قيامها فى عهد الرسل حتى القرن الخامس عشر باسم «قرون مجد برج» (Magdeburg Centuries)، تناول فيه ما كان يجرى فى المجامع الدينية، وما صدر عن البابوات.

وانبرى عدد من المتحمسين للكاثوليكية للرد عليه، وفى مقدمة هؤلاء قيصر بارونيوس (Caesar Baronius) ـ الذى كان أميناً لمكتبة الفاتيكان الضخمة

---

(١) فى عام ١٣٠٩ انتقل البابا (كلمنت الخامس) ـ وكان فى الأصل أسقفا فرنسيا ـ من روما إلى (افينون) بفرنسا، ومن ذلك التاريخ خضعت البابوية لنفوذ ملوك فرنسا، ولم ترجع البابوية إلى روما إلا فى ١٣٧٧م أى بعد ٧٠ عاما، وعرفت هذه الفترة بمدة الأسر البابلى، وأدت هذه الحادثة إلى إنقسام بين الكرادلة ورجال الدين، فقد وجد بابا فى روما وآخر فى افينون، ففقدت الكنيسة كثيراً من صفات الزعامة الدينية التى لها

التى يرجع الإهتمام بها الى البابا نيقولا الخامس الذى جمع بها مجموعات ضخمة من الكتب والمخطوطات ـ فنشر باروينيوس كتابًا باسم (الحوليات) للرد على ما جاء فى كتاب فلاكيوس، وترتب على ذلك إذاعة العديد من المعلومات والوثائق(١).

وكان الإصلاح الدينى المضاد الذى لايقل اهمية عن حركة لوثر وهو(الاصلاح الكاثوليكى) أو انتعاش الكنيسة الكاثوليكية مما اثرى التاريخ أيضاً وأدى له أجل الخدمات.

وهكذا استفاد التاريخ من هذا الجدل والصراع الدينى ـ أكبر فائدة سواء من ناحية المادة التاريخية لكثرة ما نُشر من وثائق، أو من ناحية الطريقة فقد شاع النقد والتحليل ولم يعد التسليم بما يُنشر أو يكتب ـ حتى ولو كان صادراً عن البابوات أنفسهم ـ دون تمحيص أو مراجعة أمراً مقبولا.

إن الفصل بين **الدين والدولة**، والدولة **والحضارة** باعتبارها السلطات الثلاث الدينية التى تم عن طريقها تطور جميع الأفعال التاريخية ـ كما يقول المؤرخ بوركار (Burkhardt) من أكثر الأمور أهمية.

فحين إنتظمت الممالك فى أوربا فى القرن السادس عشر وتبلورت **فكرة القومية** ـ قامت عصبية وطنية جديدة، ونشأ شعور قومى، فقام علماء مؤرخون فى دول الغرب يعنون بجمع المصادر عن **تاريخ بلادهم** بدافع الاعتزاز بالماضى ـ ولعل من أهم هذه المجموعات التاريخية الوطنية مجلدات تواريخ العصور الوسطى التى بدأ بنشرها فى القرن السابع عشر ـ بعض الرهبان من جماعة القديس مور. وتتابع ظهور السلاسل التى تتناول تاريخ قطر معين من أقدم العصور فى تتابع وتسلسل خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر(٢)

---

(١) هرشو مرجع سابق ص ٥٧

(٢) رستم أسد مرجع سابق ـ المقدمة ص ح

وترتب على النشاط العلمى والملاحى الذى صاحب النهضة الأوربية، وظهور الدول الوطنية الحديثة وشعورها بالعزة القومية ـ أن سعت الدول التى تم تكوينها إلى بسط سيطرتها على غيرها من الأمم والشعوب التى تأخر تكوينها أو التى كانت ـ فى نظر هذه الدول ـ أقل حضارة، وأقل قوة. وكان نشر المسيحية أيضاً من الحوافز الهامة وراء هذه الحركة التى أدت إلى الاكتشافات الجغرافية الهائلة وما تبعها من إستعمار.

ودخلت البرتغال وأسبانيا ثم هولنده، وبلجيكا، وانجلترا، وفرنسا فى هذا الصراع الإستعمارى وترتب على ذلك **قيام الامبراطوريات العظمى** فى العالم الجديد وفى قارتى افريقيا وآسيا.

وأدى ذلك لإحتكاك حضارى عجيب بين حضارة أوربا، وبين هذه الحضارات المتعددة والمتباينة. وتهيأت للمؤرخين بذلك مادة دسمة حفزت خيالهم، فانبروا لدراسة عادات وأدب وعقائد، ونظم الحكم، وتاريخ هذه الأقطار والشعوب الجديدة.

وكان طبيعياً أن يبرز فى هذا المجال العديد من المؤرخين الأسبان الذين جذبت أنظارهم هذه الأقطار الجديدة بعادات سكانها المغايرة لما ألفوه فى بلادهم.

كما كانت التوسع الاستعمارى الأوربى آثار إقتصادية خطيرة، فتدفق الذهب والفضة من مناجم المكسيك وبيرو على أوربا. كما زرعت مساحات شاسعة فى البلاد المكتشفة (أمريكا على وجه الخصوص) بالطباق، وقصب السكر، وتطلب هذا نقل الزنوج الأفريقيين كعبيد إلى الأراضى الأمريكية، وأحدث هذا اضطرابا اجتماعيا، وبالذات فى طبقات العمال المأجورين، وظهرت طبقات رأسمالية، وتكوين الشركات التجارية المساهمة القائمة على أساس الأسهم تشترى وتباع فى السوق الحرة ولها مجالس إدارة ـ كشركة الهند الشرقية الإنجليزية، وشركة الهند الشرقية الهولندية، ووجدت المصارف التى

تُمارس عمليات متعددة لم تكن معروفة من قبل. وبجانب هذه الطبقات الجديدة كانت هناك الأرستقراطية الزراعية متمثلة فى كبار الإقطاعيين، وكان لهذه الطبقة تاريخها الطويل منذ العصور الوسطى، وما تمتعت به من إمتيازات عبر هذه العصور.

وتطلعت الطبقات الجديدة إلى الميدان السياسى، وتأثر تاريخ أوربا بهذه الأحداث فكثر البحث والتنقيب عن أصول وأسس الأسر الحاكمة فى أوربا وحقيقة ما تدعيه من حقوق.

وتتميز هذه الحقبة من تا يخ أوربا بظهور (**الملكيات المطلقة**) فظهر فى فرنسا ملوك البربون العظام، وفى المانيا أسرة الهابسبرج، وفى إنجلترا أسرة تيودور ثم أسرة استيوارت.

واشتعلت فى هذا القرن حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ ـ ١٦٤٨) التى إنتهت بصلح وستفاليا المشهور، فى عام ١٦٤٨.

على أن أهم الأحداث فى هذه الفترة من ١٥٥٠ إلى ١٦٥٠ فى تاريخ أوربا يمكن أن نُجمله فيما يلى:

١ ـ الصراع بين أسبانيا والأراضى المنخفضة التى كان حكمها قد آل الى شارل الخامس (١٥١٩ ـ ١٥٥٦) عن جده مكسمليان، فعمد شارل الخامس الى أن يُنشىء بها حكومة موحدة رغم الإختلافات بين المقاطعات السبعة الشمالية والمقاطعات العشرة الجنوبية، وورث فيليب الثانى (١٥٥٦ ـ ١٥٩٨) حكم هذه البلاد من والده ـ لكن سياسته فيها فجرت روح الثورة التى تزعمها وليم أورنج ـ وانتهى هذا الصراع بقبول أسبانيا الهدنة مع هولندة فى عام ١٦٠٩ واعترافها رسميا فى معاهدة وستفاليا عام ١٦٤٨ باستقلال هولندة.

وخلال هذه الأزمة إنبرى عدد كبير من المؤرخين للكتابة عن الأصول

التاريخية التى تسند حق الأراضى المنخفضة فى الحكم الذاتى والإستقلال الاقليمى عن حكومة اسبانيا المستبدة أو العكس..

٢ ـ الصراع بين الملكية وطبقة النبلاء الإقطاعيين فى فرنسا، وفى خلال هذا الصراع إنبرى عدد من الكتاب والمؤرخين للبحث والكتابة فى تاريخ الملكية الفرنسية والأصول التاريخية والدستورية التى تستند إليها، فخرج لنا العديد من الكتب عن تاريخ هذه البلاد.

٣ ـ الثورة الدستورية فى إنجلترا وقد برزت هذه الثورة بعد أن وصلت أسرة استيورت للحكم فى عام ١٦٠٣م بعد أسرة تيودور وحاول ملوكها أن يقلدوا النظم التى إتبعها كل من لويس الثالث عشر (١٦١٠ ـ ١٦٤٣) ولويس الرابع عشر (١٦٤٣ ـ ١٧١٥) فى فرنسا.

ويهمنا فى مجال الأثر التاريخى لهذا الصراع البرلمانى أن كلاً من الفريقين المتنازعين ـ الملوك من جانب، والبرلمانات من جانب اخر ـ شحذ قريحة أتباعه ليبرز الحجج والأسانيد التاريخية التى يستند إليها. الملوك يطالبون بسلطات يدعون أنها ثابتة تاريخياً، والبرلمانات تطالب بحقوق تدعى أنها أكتسبت من زمن وصارت من حقها بلا منازع.

وأعطانا هذا الجدل الذى ثار خلال هذه المعارك الدستورية، مادة نادرة للتطور الدستورى فى إنجلترا ما كان يمكن أن نحصل عليها لولا هذا النزاع.

وجاء القرن الثامن عشر ـ فشهد حركة علمية وفلسفية واسعة ذات طابع ثورى أطلق عليهااسم (حركة الإستنارة) ـ إذ أنشئت ـ تحت رعاية الحكومات، الأكاديميات العلمية اتبادل وجهات النظر بين المتعلمين[١].

---

(١) الأكاديمية ـ اسم لغابة تقع فى الشمال الغربى من مدينة اثينا ـ ورجع اسمها للبطل الأغريقى القديم (اكاديموس)، وكان الفيلسوف افلاطون يلتقى بالقرب منها بتلاميذه. ومن هنا كانت التسمية لمدرسته وفلسفته

وكذلك تعمل لنشر أبحاثهم وتشجيع الانتاج بمختلف الوسائل، فانشئت في انجلترا الاكاديمية الملكية في ١٦٦٢، وفي فرنسا عام ١٦٦٦، كما انتشرت المكتبات العامة والمتاحف.

ومن الذين برزوا في القرن الثامن عشر في مجال التاريخ - الفيلسوف الإيطالي جيوفني باتستافيكو Gio Vanni Battistavico (١٦٦٨ - ١٧٤٤) فقد نشر في عام ١٧٢٥ كتابه «اصول علم جديد» ذهب فيه إلى أن التاريخ فرع من فروع العلوم الإنسانية وأن منهج البحث التاريخي يقوم على اصول منطقية، وأن كل عصر من عصور التاريخ يمثل تطوراً معيناً(١).

أما الكُتاب الفرنسيون فقد كانت كتاباتهم وأبحاثهم القبس الذي أنار الطريق، أمام الفرنسيين وغيرهم فشعروا بالظلم الواقع عليهم، فهبوا مطالبين بحقوقهم المهضومة، ولذا فقد كانوا القوة الدافعة للثورة الفرنسية. وفي مقدمة هؤلاء منتسكيو Montesquieu (١٦٨٩ - ١٧٥٥) ففي كتابه «روح القوانين» Espirit des lois درس نظامي الحكم الإنجليزي والفرنسي، وتطورهما وقارن بينهما، وأشار إلى تطور نظام الحكم عند الرومان وغيرهم من الحكومات في الماضي والحاضر - وتوصل في النهاية إلى قاعدة هامة وهي «أن الأنظمة السياسية لكي تكون ناجحة لابد من أن تكون ملائمة للحياة الطبيعية والخصائص العقلية للشعب».

كما أن جان جاك روسو Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨) في كتابه «العقد الاجتماعي» Le Contrat Social يذهب إلى أن الانسان ولد حراً لكنه تنازل عن بعض حريته وحقوقه للمجتمع، فالحكومة تستمد قوتها من إرادة الشعب وتبقى مشروعة طالما أنها تستند إلى هذه الإرادة الشعبية، وهي صاحبة السيادة، ولها أن تعزل الحكام من مناصبهم متى شاءت، ولها أن تُغير الحكومة في أي وقت، وبالطبع تهدم هذه الاراء كل أساس تقوم عليه الملكية المطلقة الإستبدادية، ومن

---

(١) Collingwood: Op. Cit.

حق الشعب فى ضوء هذه المبادىء إبعاد الحكومة عن الحكم إذا وجد أنها خرجت على إرادة الشعب العامة وأخلت بذلك العقد، المبرم أصلا بينها وبين الشعب صاحب السيادة العليا فى الدولة.

أما فولتير Voltaire (١٦٨٤ ـ ١٧٧٨) فعالج فى كتابه «عصر لويس الرابع عشر» عناصر القوة وأسباب الضعف فى فرنسا فى عهد هذا الملك، وإمتدح ما رأه فى إنجلترا من سيادة القانون على جميع الناس دون تمييز، كما إمتدح نظام الحكم فى إنجلترا حيث يكفل حقوق كل من الملك، والأشراف والشعب. وتميزت كتاباته بالدعوة لتحكيم العقل ورفض ما لا يُقره.

وفى إنجلترا إنبرى المؤرخ الإنجليزى ادوارد جبون Edward Gibbon (١٧٣٧ ـ ١٧٩٤) لتحليل أسباب قوة الإمبراطورية الرومانية، وأسباب إضمحلالها وسقوطها فى كتابه المشهور «تاريخ اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية».

The History of the Decline and fall of the Roman Empire (7 vols).

وقد تُرجم هذا الكتاب إلى العديد من اللغات، ووجد فى مكتبات العديد من الحكام الذين حاولوا الإسترشاد بما جاء فيه. ولازال له أهميته وقيمته العلمية للطريقة التحليلية التى سار عليها المؤلف.

وكان من الآثار الطبيعية للمبادىء التى شاعت أثناء الثورة الفرنسية وبعدها شيوع روح النقد والتمحيص والتحليل للمراجع والمصادر والأفكار والآراء وإستبعاد ما لا يثبت صحته منها ولا يساير المنطق والعقل.

ويُعتبر المؤرخون الألمان (المدرسة التاريخية الألمانية) ـ أساتذة مدرسة النقد والتحليل، فقد تميزت كتابات عدد كبير منهم منذ أواخر القرن الثامن عشر، وفى القرنين التاسع عشر والعشرين بالدقة والنقد لكثير مما ظهر من قبل من نظريات وآراء فى العصور السالفة

ظهر ذلك جليا فى كتابات وولف الألمانى F.A. Wolf فى عام ١٧٩٥ الذى وصل به الأمر ـ كما سبق أن ذكرنا ـ إلى أنه نفى ما كان شائعا من أن الألياذة والأوديسة كتبها هوميروس، وذهب إلى أنها من عمل جماعة من الشعراء فى فترات زمنية متباعدة.

كذلك كتابات المؤرخ والفيلسوف الألمانى هردر Herder الذى كان معاصراً لروسو وأطلق عليه اسم (روسو الألمان) واشتهر بكتابه عن فلسفة التاريخ(١).

ومن أمثلة ذلك أيضاً ماكتبه المؤرخ الألمانى برتولد نيبور B. Biehuhr (١٧٧٦ ـ ١٨٣١) عن تاريخ الرومان، حلل فيه ما كتبه ليفى وغيره من تاريخ الرومان، فأثبت أنه بعيد كل البعد عن الحقيقة. واستطاع نيبور أن يفصل الأساطير فصلاً واضحا دقيقا عن الواقع التاريخى(٢)

كذلك كتابات ليوبولد فونرانكى Rankel. Von (١٧٩٥ ـ ١٨٨٦) الذى كتب فى تاريخ إيطاليا، وتركيا، وإنجلترا، وفرنسا ـ بالإضافة إلى مؤلفه الجليل عن تايخ العالم الذى ظهر منه فى حياته سبعة مجلدات، وأتمه تلاميذه من بعده، وكذلك كتابه «التاريخ الألمانى فى عهد الإصلاح الدينى»

والحقيقة التى نخرج بها من هذا العرض لتطور التاريخ عبر هذه العصور هى أن التاريخ بدأ بالقصص الخيالية التى لا تخلو من الخرافات يتناقلها الأبناء عن الآباء، وفى العصور الوسطى أصبح دينيا يختص به رجال الكنيسة، وفى عصر النهضة أصبح وطنياً قومياً يهتم بإثبات الشخصية الخاصة المتميزة

---

(١) كاسبرر، ارنست: مرجع سابق ص ١٣

(٢) نفس المرجع ص ١٩

لمجموعة من الناس، أما في القرن الثامن عشر فإن الكتاب من أمثال فولتير وجبون كانوا يهدفون من كتاباتهم إلى غرض سياسي.

وجاء **القرن التاسع عشر**، والتاريخ - رغم ما حققه من تقدم في محاولة البعد عن السرد أو الجنوح إلى روح النقد والتحليل - كانت لا تزال أقدامه تهتز ومن حيث الهدف منه، والأسس التي يجب أن تقوم عليها الكتابة التاريخية أي ما نعبر عنه اليوم (بالمنهج).

لقد تميز القرن التاسع عشر بظاهرة هامة هي جمع .ادر التاريخية ونشرها. ساعد على ذلك ما اكتسبه الناشرون من خبرة فنية فبدأت تظهر مجاميع علمية هامة قدمت للباحث التاريخي مادة علمية وفيرة. فبدأت تظهر مجموعات من الوثائق التاريخية من مصادر متعددة لا حصر لها بوبت وقسمت وفهرست - وشجعت الحكومات والهيئات العلمية هذا العمل(١)

ففي **ألمانيا** قامت (جمعية دراسة بخ الألماني) منذ ١٨١٩م بنشر سلسلة من الوثائق تتعلق بتاريخ ألمانيا تحت اسم (أصول التاريخ الألماني القديم).

وفي **فرنسا** تكونت في عام ١٨٣٤م (جمعية تاريخ فرنسا) وقد نشرت عدة مجلدات في مصادر التاريخ الفرنسي

وفي عام ١٨٣٦ شرعت **بلجيكا** في نشر العديد من الوثائق التي كانت بدار محفوظاتها - كذلك أسبانيا في عام ١٨٤٢، والنمسا في عام ١٨٤٩م

ومنذ عام ١٨٥٧ أخذت (مصلحة المطبوعات الرسمية) **البريطانية** تنشر ماعرف باسم (تقاويم الأوراق الرسمية)، كما نشرت سلسلة كبيرة من الوثائق تحت إسم (تواريخ ومذكرات بريطانيا العظمى، وايرلنده في العصور الوسطى) وذلك في مجلدات بلغ عددها في عام ١٨٦٩ - ٢٤٤ مجلدا.

---

(١) هرنشو: مرجع سابق ص ٨٦ ومابعدها

كما تشكلت فى بريطانيا فى عام ١٨٦٩ (لجنة المخطوطات التاريخية) لفحص وفهرسة ونشر مجاميع الوثائق الهامة التى كانت فى حيازة الهيئات البلدية وغيرها.

وفى الولايات المتحدة أخذت الجامعات (جامعة هارفارد، وجامعة كولمبيا، وجامعة متشيجان.. وغيرها) تهتم بنشر ما يتعلق بتاريخ أمريكامن وثائق.

وقد بلغ من ضخامة المادة العلمية المنشورة - فى هذا القرن التاسع عشر أن أصبح المؤرخون غير قادرين على متابعة والاستفادة مما يُنشر، وبالطبع أدى هذا للتخصص الدقيق - فتخصص قوم فى التاريخ الاقتصادى أو السياسى أو الإجتماعى - وهكذا.. وأصبح لفظ مؤرخ بمفهومه العام الشامل غير مستساغ.

ويذكر كاسيرر «إن ماتحقق من تقدم فى علم التا يخ يُعتبر من أعظم إنجازات عصر الإستنارة، فقد دفع للبحث فى طائفة جديدة من المسائل التاريخية، كما دفع إلى وضع المناهج المتميزة للمعرفة التاريخية.. فالقرن التاسع عشر يعتبر من خصائصه ليس فقط إكتشاف التفكير التارخى، بل ايضاً تقديم علم التاريخ فى صورة جديدة»(١).

ونُشير فى نهاية هذا الفصل إلى ما إنتهى إليه الفيلسوف الألمانى شيجل Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) عند حديثه عن فلسفة التاريخ - فذكر أن التارخ هو عبارة عن علاقة الدول بعضها ببعض، وعلاقتها بالروح العام السائدة فى العالم، وتاريخ العالم هو عبارة عن (مجلس قضاء) يمسك فيه بصولجان الحكم شعب واحد، وظل كذلك إلى أن يظهر شعب اخر أقدر منه فينتزع منه ذلك الصولجان وهكذا.

---

(١) كاسيرر، ارنست: مرجع سابق ص ٤.

وتاريخ العالم فى نظره ـ حتى عصره ـ مر فى ثلاثة مراحل هى:

ـ الشرقى تمثل فى الحاكم المستبد.

ـ اليونانى الرومانى ـ تمثل فى النظام الذى ساد العالم يومئذ.

ـ الجرمانى ـ تمثل فى ظهور شخصية الانسان من حيث هو انسان.

ولاشك فى اننا لا يمكن أن نقبل وجهة نظر هجيل فى التاريخ وتصوره له كماهى دون مناقشة لكن على كل حال هى وجهة نظر فيلسوف له مكانته ويمكن أن توضع على بساط المناقشة.

الفصـــل الثانى

التاريـــخ عنـد العـرب

مباحث هذا الفصل:

- التاريخ عند العرب فى الجاهلية (الأيام، الأنساب، تاريخ ملوك الحيرة)
- تطور علم التاريخ عند العرب بعد الإسلام والعوامل التى أثرت فيه.
- المراحل التى مرت بها الكتابة التاريخية عند العرب بعد الإسلام.
- مدارس الحركة التاريخية عند العرب المسلمين وخصائص كل منها:
  - المدرسة اليمنية (وهب بن منبه).
  - المدرسة الحجازية فى المدينة (عروة بن الزبير، والزهرى).
  - المدرسة العراقية فى الكوفة، والبصرة، وبغداد، وأئمة مؤرخى القرن الثالث الهجرى. (البلاذرى، واليعقوبى، الدينورى، وابن قتيبة، والطبرى).
  - مدرسة التاريخ فى مصر والشام.
  - مدرسة التاريخ فى الأندلس.
- المؤثرات التى أثرت فى الكتابة التاريخية عند العرب.
- أهم المواضيع التى تناولها المؤرخون العرب فى كتاباتهم.

ألمنا بتطور علم التاريخ وتتبعنا المراحل التى مر بها هذا التطور عند الأوربيين والمؤثرات التى أثرت على الكتابة التاريخية عندهم.

والأسئلة التى تفرض نفسها علينا بعد ذلك هى.

هل كان للعرب فى الجاهلية إهتمام بالتاريخ؟

وما التغيير الذى طرأ على الكتابة التاريخية بعد الإسلام؟

وما الأطوار التى مر بها هذا التغيير؟

وما العوامل التى أثرت فى الكتابة التاريخية عندهم؟

كل هذه وأمثالها أسئلة لابد أن تجول بالأذهان لندرك موقفنا من هذه الحركة العلمية ودورنا فيها.

كان العرب **قبل الإسلام** يحددون الأوقات بالنجوم **والأهلة**، كما كانوا يؤرخون بالأحداث العظمية الحاسمة، والوقائع المشهورة ـ كعام الفيل، وبناء الكعبة ونحوها.. وظل الأمر كذلك حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب ـ فأمر أن تُتخذ الهجرة النبوية بداية للتاريخ العربى فمضى الأمر على ذلك حتى يومنا هذا(١).

ولا نكاد نجد للعرب فى الجاهلية تاريخاً مدوناً بإستثناء بعض النقوش على المبانى القديمة فى اليمن التى تحكى أخبار بعض ملوكهم وشؤونهم العامة، وكذلك أخبار ملوك الحيرة المسيحيين التى كانت مودعة فى الأديرة والكنائس ببلادهم(٢).

لكن العرب كانوا يتذاكرون **أيامهم** عن طريق الرواية الشفوية ويتفاخرون

---

(١) العبادى، عبدالحميد: علم التاريخ ص ٣٤.
(فصل إضافه للترجمة العربية لكتاب هرنشو السابق الإشارة اليه)
(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حـ ٢ ص ٣٧

بما أحرزه أجدادهم من انتصارات، وذلك عن طرق الشعر أو النثر، وبالطبع إصطبغت أمثال هذه الأشعار بالمغالاة.

كذلك كانت القبائل تتفاخر بنسبها، وتحرص على أن تلقنه لأطفالها فتتناقله الأجيال، وكان ذلك مصحوباً بالطبع بقصص البطولات المرتبطة بهذه القبائل، وقد ظلت للأنساب أهميتها بعد الإسلام للإستعانة بها فى تقدير العطاء للجند.

وهكذا وصلتنا روايات عن عرب اليمن وملوكهم. فقد أورد هؤلاء الرواة قصصاً خيالية لتاريخ اليمنيين نسبوا فيها إليهم أمجاداً فى الحرب، وفى الأدب واللغة.. ليدللوا على أنهم سبقوا عرب الشمال فى أمجادهم أو أنهم لايقلون عنهم فى ذلك.

كما وصلتنا أخبار عرب الشمال مما هو محفوظ فى نقوش وكتب كنائس وأديرة الحيرة، بالإضافة إلى الروايات الشفوية عن غزواتهم ومعاركهم (الأيام) وحول أنسابهم.

ونلاحظ أن الروايات القبلية حول غزوات العرب ومعاركهم والتى أطلقوا عليهم لفظ (الأيام) كانت فى البداية شفهية وبصورة نثرية، لكن تخللها الشعر وأعطاها أهميته، وكانت تسليتهم فى المجالس القبلية المسائية، وبقيت كذلك بعد ظهور الإسلام وحتى القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) حين جُمعت الروايات وصُنفت، وهكذا صارت (الأيام) جزءاً من الأخبار التاريخية، كما أن ورود الشعر فيها جعلها موضع إهتمام اللغويين، والمؤرخين.

ويذكر حاجى خليفة «أن علم ايام العرب هو علم يبحث فيه عن الوقائع العظيمة، والأهوال الشديدة بين القبائل.. وينبغى لذلك أن يجعل فرعا من فروع التواريخ»(١).

---

(١) خليفة، حاجى. كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون جـ ١ ص ٤٠٢.

وكانت للعرب قبل الإسلام صلاتهم ببعض الشعوب المجاورة لهم كالروم والفرس، سواء بسبب الإحتكاك التجارى أو الحربى ـ لذلك كان طبيعياً أن تتناول قصصهم ورواياتهم شيئا من تاريخ هذه الشعوب وأخبار ملوكهم.

فلما جاء الإسلام، وقامت الدولة العربية ـ أصبحت الحاجة ماسة لتدوين التاريخ، واتسع هذا العلم تطور حتى أصبح من أهم العلوم عند العرب ـ وذلك لأسباب:

١ ـ السيرة والمغازى:

عنى المسلمون بجمع الأحاديث النبوية ليفسروا بها القرآن، وليسترشدوا بها فى معرفة أحكام الدين، وكانت هذه الأحاديث يتعلق بعضها بحياة النبى ﷺ والصحابة والغزوات، وما حدث خلالها، ولذلك وجد المتخصصون فى رواية الحديث (المحدثون)، وكانت لهم منزلة كبيرة عند الناس، فهم الذين يحدثون الناس عن أقوال الرسول وأفعاله، وهذه لها أهميتها عند عامة الناس، وعند الحكام للإعتماد عليها فى **التشريع**، وفى **تنظيم الإدارة**، وفى شؤون الحياة عامة، فهى أصل من أصول التشريع فى الإسلام.

كذلك جعلت الفتوحات الكبرى ومغازى الرسول، وغزوات أصحابه، العرب يحسون بأن لهم دوراً تاريخياً خطيراً يستحق التسجيل والتمجيد، كما كانت مواضيع محببة فى مجالس السمر.

٢ ـ رغبة المسلمين فى فهم ما جاء فى القران والسنة ـ من إشارات إلى الأمم الغابرة.

وعلى ذلك كان الاهتمام بالرواية التاريخية التى تتناول أخبار الأمم القديمة، وتاريخ الأنبياء السابقين، وأصول الجاهلية، وحوادث الإسلام

وقد اشتمل القرآن والسنة على كثير من **أخبار اليهود والنصارى**

الصابئين والمجوس، وكان تعرضه لها مختصرا، فأراد المفسرون أن يتوسعوا فى تفسير ذلك، فكان محالهم أخبار اليهود والنصارى وغيرهما مما ورد فى التوارة والانجيل وشروحها وحواشيها، والطبرى فى تاريخه «تاريخ الأمم والملوك» يتعرض لذلك بهتم بالتعريف برواة الأخبار لكل أمة من الأمم التى عرفها العرب

وممن اشتهر من الرواة وهب بن منبه (ت ١١٤ هـ - ٧٣٢م) وسنفصل ذلك عند الحديث عن مدارس التاريخ العربى(١).

٢ - رغبة الخلفاء فى الإطلاع على سياسات الملوك الآخرين ليعرفوا كيف يسوسون شعوبهم، خاصة بعد أن تعددت المشكلات السياسية والإجتماعية والإقتصادية وغيرها فى الدول العربية وتشعبت المشكلات

وقد ذكر المسعودى إن معاوية كان بعد أن يفرغ من عمله «يستمر إلى ثلث الليل يستمع إلى أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها، وسياستها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السابقة.. ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارهم، والحروب والمكايد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون.. فتمر بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات»(٢).

---

(١) الاسرائيليات - يقصد بها الأحاديث الإسرائيلية المتعلقة بأحداث جاء ذكرها فى القران الكرم وتشير إليها ابن كثير ، ويذكر انها تذكر للإستشهاد لا للاعتقاد، وقسمها إلي ثلاثة اقسام:

احدها - ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح

الثانى - ما علمنا كذبه مما عندنا ما يخالفه.

الثالث - ماهو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل - فلا نؤمن به ولا نكذبه، ويجوز حكايته، ومثال ذلك ما لا فائدة عنه تعود إلى أمر دينى - مثل أسماء أصحاب الكهف، وعصا موسى من أى الشجر كانت.

اسماعيل، أبو الفداء بن كثير القرشي الدمشقى: تفسير القرآن العظيم جـ ١ ص ٤

(٢) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر جـ٣ ص ٥٢

٤ ـ **تقدير الجزية والخراج**: رغبة الولاة فى معرفة ما فُتح من الأقطار صلحا، وما فتح عنوة، أو بعهد. فقد كان النظام المالى مع هذه الأقطار من جزية وخراج يختلف تبعا لذلك، وقد دعا هذا مؤرخى البلدان أن يعقدوا الفصول الطويلة يبينون فيها حال البلد فى الفتح.. مثال ذلك «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادى، و«فتوح البلدان» للبلاذرى(١).

٥ ـــ **نظام العطاء والجند**: كان مرتبا حسب الأنساب، وحسب الاسبقية إلى الإسلام.

وهكذا استلزم تنظيم شئون الدولة المالية الاهتمام بهذا النوع من التاريخ فظهرت كتب (الطبقات).

٦ ـ **احتكاك العرب بشعوب وأمم لها تاريخها**، فكان من الطبيعي أن يكون للعرب تاريخهم. يظهرون للشعوب الأخرى إنهم وإن كانوا حديثى العهد بالحضارة لكنهم قادرون على أن يسايروا الحضارات الأخرى، وأن يستوعبوا منها مايلائمهم بل وأن يتفوقوا عليها.

٧ ـــ **ازدهار حركة الترجمة والتاليف** عامة باتساع الدولة العربية وتطورها وتشجيع الخلفاء لهذه الحركة العلمية، فكان طبيعياً أن يكون للتاريخ حظه من هذا التطور والتقدم.

٨ ـــ **حوادث الخلاف بين المسلمين**، كالذى كان بين المهاجرين والأنصار عقب وفاة النبى ﷺ، والخلاف بين الأمويين والشيعة، وبينهم وبين الخوارج. كل هذا أدى للكتابة لتكون مجالا يدعم به كل فريق عقائده فى هذه المسائل السياسية.

على أن الكتابة التاريخية عند العرب بعد الإسلام مرت فى أطوار مختلفة نجملها فيما يلى:

---

(١) امين، أحمد: ضحى الإسلام جـ٢ ص ٢٣٩

أولاً: القصص والأساطير الشعبية:

هذه المرحلة امتداد لما كان سائداً قبل الإسلام، وقد أشرنا لذلك من قبل. وكان طبيعيا أن يستمر هذا اللون من الرواية التاريخية عن أيام العرب وحروبهم وعلاقاتهم بالشعوب التى اتصلوا بها، فقد ظل القصاص و(الأخباريون) يرددون هذا النوع من القصص المبالغ فيها، وهى لاتعتمد كثيراً على توقيت تاريخى لما ترويه من أحداث لكنها تتناول الحروب الهامة والأحداث الهامة دون إهتمام بالربط التاريخى.

وقد وفرت هذه القصص مادة للشعراء - لكن لم يكن معقولا أن يستمر الحال على هذا المنوال بعد أن تعددت أحداث الجزرة العربية فأصبح الأمر يستلزم دقة أكثر وربطا للأحداث وتركيزاً على الهام منها المرتبط بمصير العرب وبالدين الجديد.

ثانياً: مؤرخو السيرة والمغازى:

اشتهر عدد من الكتاب بالتاريخ للسيرة النبوية ومغازى الرسول ﷺ وغزوات أصحابه. ولعل أول ما ظهر فى هذا الشأن هو كتاب موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١هـ. ثم كتاب محمد بن اسحق المتوفى سنة ١٥٠هـ الذى إختصره عبدالملك بن هشام، ومن بعد ذلك مغازى الواقدى المتوفى سنة ٢٠٧هـ ثم طبقات بن سعد المتوفى ٢٣٠هـ(١).

لكن لم تقتصر كتابات هؤلاء على السيرة النبوية، أوذ كر الغزوات فقد كان الكاتب عادة حتى القرن الثانى الهجرى يبدأ بالحديث عن أخبار الماضى، ثم يتعرض لأحوال السيرة النبوية، ثم يختم بالحديث عن أخبار الدولة الإسلامية.

وظلت كتابات هؤلاء المؤرخين متأثرة بالتيار القصصى السالف الذكر.

---

(١) الكلاعى: الإكتفاء فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء جـ ١ المقدمة ص ١.

ولعل الرسول ﷺ كان يمثل فى هذه السير ـ فى نظرهم ـ دور البطل فى قصص الجاهلية.

وهكذا نرى أن الكتابة التاريخية فى هذه المرحلة ـ استمرار لما كان يوجد فى الجاهلية. ويمكن أن نقول أن هذه الكتابة حتى هذه المرحلة لم تكن قد تأثرت بعد بمؤثرات بل كانت عربية خالصة.

ولذا تظهر فيها الخصائص التى لمسناها فى الجاهلية من الإهتمام بالأيام والأنساب، ولعل ذلك يتمثل خير تمثيل فى كتابات محمد بن السائب الكلبى المتوفى عام ١٤٦هـ(١).

ثالثاً: منذ أوائل **القرن الثالث الهجرى** توفرت المصادر الأصلية للمادة التاريخية لخدمة المؤرخين العرب ـ فقد استقرت بن الدولة العباسية (ديوان الإنشاء، وديوان الجند، والخوارج، والبريد...).

وتيسر للمشتغلين بالتاريخ أن ينتفعوا مما فى هذه الدواوين من المراسلات الرسمية أوالعهود، أو الإحصاءات.

كما أن الأحداث نفسها من ولاية كبار رجال الدولة، أو الوقائع والغزوات أو أعمال القضاة، أو غير ذلك ـ وفرت مادة علمية دسمة للكتابة التاريخية.

وقامت فى هذا العصر **حركة النقل عن اللغات الأجنبية** كالفارسية، والسريانية، واليونانية، واللاتينية.

بدأ هذه الحركة ـ حركة الترجمة ـ ابن المقفع بترجمة كتابى (خبر نيامه)، و(ابينامه) فى تاريخ الفرس، وكذلك البلاذرى المتوفى عام ٢٧٩هـ الذى ترجم إلى العربية عهد (اردشير)(٢).

---

(١) نصار، حسين: مرجع سابق، ص٧٣، ٧٤.

(٢) العبادى، عبدالحميد: مرجع سابق ص ٤٩.
(عن الفهرست ص ص٦٤، ١٧٢)

على أن سهولة التنقل التي توفرت بين أنحاء الدولة الإسلامية في ذلك العهد ـ أتاحت فرصة للمؤرخين، وطلاب العلم للرحلة لمشاهدة عجائب البلاد وآثارها، والأخذ عن الشيوخ والشهود لهم بالدقة والصدق

وعلى هذا يمكن أن نجمل **مصادر التاريخ التي أخذ منه مؤرخو هذه الحقبة في أربعة:**

(أ) كتب السيرة والأخبار.

(ب) السجلات الرسمية.

(جـ) الكتب المترجمة عن اللغات الأجنبية.

(د) المشاهدة والمشافهة.

رابعا: لما تعرضت الدولة العباسية للحركات الانفصالية، وتداعت الوحدة السياسية للدولة وإنفصلت عنها في الشرق والغرب ـ دويلات متعددة تأثرت الكتابة التاريخية بهذا التفرق السياسي الذي أصاب الدولة

فبعد أن كانت حاضرة الخلافة هي مركز الحركة الثقافية ومحورها ـ تعددت المراكز، وتنافست بغداد، وأصفهان، وحلب، والحواضر المصرية، والقيروان، وقرطبة وغيرها.

وكثر العلماء في الأمصار المختلفة، وترتب على ذلك التركيز على **التواريخ المحلية**. فكتب ابن عبد الحكم (ت ٢٥٧هـ) كتاب فتوح مصر والمغرب، والكندي (ت ٣٥٠هـ) **كتاب ولاة مصر وقضاتها**، وابن عساكر (ت ٥٧١هـ) تاريخ دمشق، وابن عذارى كتاب البيان المغرب في أخبار المغرب

على أن ذلك لم يحل دون الإستمرار في تدوين **سلاسل التاريخ العام للأمة الإسلامية كلها**[١].

---

(١) العبادي: عبدالحميد: مرجع سابق ص ٤١.

فكتب المسعودى (ت ٣٤٦هـ) مروج الذهب وأخبار الزمان

وابن مسكويه (ت ٤٢١ هـ) ـ تجارب الأمم.

وابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ـ الكامل فى التاريخ.

وأبو الفداء (ت ٧٣٢ هـ) ـ المختصر فى أخبار البشر.

وابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر

خامساً: تعرض العالم الإسلامى بعد ذلك **للأطماع الأجنبية**، فأغار عليه الصليبيون فى القرنين الخامس والسادس الهجريين، كم أغار التتار على عاصمة الخلافة العباسية ودمروها، هذا بالإضافة إلى ما أصاب الخلافة الأموية فى الأندلس من انقسام فقامت (ممالك الطوائف) بها، ثم أخذت تسقط الواحدة تلو الأخرى حتى لم يبق للمسلمين فى الأندلس (فردوس العرب المفقود) إلا غرناطة التى حكمها بنو الأحمر حتى سقوطها فى يد الأسبان فى عام ١٤٩٢م.

وأثرت كل هذه الأحداث بلا شك فى الكتابة التاريخية عند العرب ـ فانبرى عدد من المؤرخين يتناولون بالتعليل والتحليل ـ عوامل قيام الدول وأسباب قوتها وعلل انحلالها وسقوطها.

ولاشك فى أن هذا الاتجاه ساعد المؤرخين العرب على الخروج عن المألوف ـ سواء فى سرد الأحداث أو ذكرها منسوبة لمصدرها دون تعليل أو تعليق ـ إلى أن يقفوا من الأحداث موقفاً فلسفيًا عميقاً ليصلوا إلى أسبابها ويحللوا النتائج التى ترتبت عليها.

سادساً: على أن التطور الهام فى التدوين التاريخى عند العرب يتمثل فى **النظرة للتاريخ على أنه علم** له أصوله فى البحث والكتابة

ويعتبر **ابن خلدون** فى مقدمة الذين نهجوا هذا النهج ونادوا بهذا المبدأ.

فقد كتب فى مقدمته فى فضل علم التاريخ، وتحقيق مذاهبه، وأشار إلى اخطاء المؤرخين فحذر من الوقوع تحت تأثير النقل من الأقدمين ـ دون مراعاة لأصول البحث العلمى التى شرحها وأوضحها فى مقدمته(١).

كذلك إتجه هذا الإتجاه فى إبراز قيمة التاريخ كعلم ـ السخاوى فى كتابه «الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» ـ وهو عبارة عن مقالة طويلة عن التاريخ وفضله كعلم، وتحدث فيها عن علم التاريخ لغة واصطلاحاً، وبين فائدته وذكر بعض المصنفات التاريخية وأربابها ومتى بدأ الاهتمام به، وذم من ذم التاريخ(٢)

مدارس الحركة التاريخية عند المسلمين(٣):

فى ضوء ما تقدم نجد أن هناك خمسة مدار واضحة المعالم فى تطور الحركة التاريخية عند العرب.

---

(١) ولد ابن خلدون، أبو زيد عبدالرحمن بن محمد ـ فى تونس، وتولى عدة مناصب فى القصور الملكية بفاس، وغرناطة، وبوجيه، وتونس ـ وتوفى بالقاهرة فى ١٩ مارس ١٤٠٦م حيث كان يعلم فى الأزهر الشريف ـ وقد قضى فى مصر مدة بلغت ٢٤ عاما وكتابه «العبر وديوان المبتدا والخبر» قسمه إلى ثلاثة اقسام:

القسم الأول (المقدمة): عرض فيها الأصول العامة لعلم التاريخ، والأسس الفلسفية لتاريخ الشعوب الإسلامية.

القسم الثانى: يتناول تاريخ للشعوب العربية وما جاورها من الأمم الشهيرة.

القسم الثالث: يتناول تاريخ البربر والأسر الإسلامية فى شمال افريقيا.

وقد ترجمت مقدمته لعدة لغات، وترجمت إلى التركية مرتين ـ الأولى طبعت بالقاهرة عام ١٧٣١م، والثانية ترجمها جودت باشا مؤرخ الدولة العثمانية ـ وطبعت بالأستانة سنة ١١٣٧هـ، كما ترجمها إلى الفرنسية البارون (ده سلان)، وتوجد نسخة من المقدمة بدار الكتب المصرية عليها تصحيحات بقلم ابن خلدون نفسه، كما توجد فى (فاس) بالمغرب نسخة أخرى مشهورة بخطه.

ولمن يريد المزيد عن ابن خلدون ومؤلفاته ـ انظر

بدوى، عبدالرحمن: مؤلفات ابن خلدون (القاهرة ١٩٦٢)

(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية.

وقد صدرت منه طبعة فى دمشق ١٣٤٩هـ

(٣) مدرسة هنا نعنى بها الحركة العلمية لا البناء الخاص بالتعليم

أولاً - المدرسة اليمنية:

وقد إهتمت بأخبار أهل الكتاب، وتاريخ اليمن. والتاريخ فيها قصص وأساطير.

فهى استمرار للتيارالجاهلى، والمؤرخون هنا قصاص شعبيون أو إخباريون يرددون الروايات التاريخية كما هى دون محاولة جادة لنقدها أو تخليصها من الخرافات.

ففيها تبدو بوضوح السمات التى ذكرناها عن الروايات اليمنية فى طابعها الأسطورى القصصى فهى مزيج من القصص الشعبى، والإسرائيليات وفيها تمجيد لعرب اليمن، كما أنها فى أسلوبها لاتخرج كثيراً عن أسلوب قصص أيام العرب.

والبعض ينظر لرواد هذه المدرسة على أنهم قصاص أكثر منهم مؤرخين.

وفى مقدمة هؤلاء **وهب بن منبه، وعبيد بن شريه**.

وسنشير - **لوهب بن منبه** - بشىء من التفصيل بإعتباره يمثل بحق هذه المدرسة اليمنية.

ورغم أن البعض زج بوهب بن منبه فى نطاق أهل المغازى - لكن وضعه الحقيقى فى نطاق هذه المدرسة اليمنية بطابعها الذى اشتهرت به من اهتمام بالقصص والإسرائيليات(١).

ولد وهب بن منبه فى اليمن، وهناك اختلاف فى تاريخ ولادته، وفى تاريخ وفاته، لكن لعل الأرجح انه ولد فى سنة ٣٤ هـ (٦٥٤ - ٦٥٥م) كما يذكر الدورى(٢).

---

(١) الدورى، عبدالعزيز. بحث فى نشأة علم التاريخ عند العرب ص ١٠٣

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة

ويصفه كل من ياقوت، وابن خلكان، والذهبى (بصاحب الأخبار والقصص).

وهو يستقى مواده من الروايات الشفوية، ومن كتب الأنبياء وغيرها، فقد إشتهر بسعة الإطلاع.

فقد روى قطعاً من العهد القديم (التوراة)، خاصة من المزامير وسفر التكوين، ولعله أخذ أيضاً من الأنجيل معلومات عن ميلاد المسيح وحياته، وعن بداية المسيحية وانتشارها فى اليمن بالذات.

ونُسبت إليه العديد من المؤلفات، رغم أنه لم يصلنا منها إلا القليل من المقتبسات التى إقتبسها بعض الكتاب عنه مثل الطبرى، وابن قتيبة وغيرهما.

ومما ينسب إليه أنه ألف «أحاديث الأنبياء، والعباد، وأحاديث بنى اسرائيل» و«مبتدأ الخلق » و«الاسرائيليات» وكتاب «الملوك المتوجه من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم».

ويبدو من هذا أنه اهتم بالكتابة عن - **خلق السموات والارض**، وقصص الأنبياء، وخاصة من بنى إسرائيل.

وبالإضافة إلى هذا ألف وهب فى المغازى - لكن لم يشر لكتاباته هذه فى كتب السيرة - مما يجعلنا أن نضعه فى مكانه الصحيح باعتباره من كتاب الأقاصيص والأساطير اليمنيين، وانه امتداد لفترة ما قبل الإسلام، وإن له اثاره التى امتدت لفترات تالية، فقد أدخل (عنصر القصة) فى حقل التاريخ الإسلامى. ولا يخفى علينا أن القصص الشعبى عن السيرة وعن المسلمين الأوائل هو - كما قلنا - إمتداد للقصص القديم فى أسلوبه وطريقته.

فدور وهب بن منبه وأمثاله إذن هو أنهم كانوا أول من وضعوا هيكلا - وإن كان قصصيا - لتاريخ النبوة منذ بدء الخليقة حتى ظهور الإسلام، وقد تاثر بهم بعض المؤرخين التاليين.

ولم يكن للأخبار والمرويات فى البداية أسانيد، بل استمرت كجزء من الثقافة العامة وهى تهم الجميع، وكان رواة الشعر أو مشايخ القبائل هم الرواة الأساسيون لها، وهكذا استمر هذا الوضع الى فترة فى المجتمع الإسلامى الأول كما كان الوضع قبل الإسلام - لكن ظهور الإسلام، واستقرار القبائل فى الأمصار أدى إلى تغيير كبير خاصة حين بدأ الاهتمام بالكتابة والقراءة وحدثت ثورة ثقافية كان للتاريخ بالطبع نصيبه فيها.

هذا وقد ارتفع شأن القصص حتى أصبح عملاً رسمياً يعهد به إلى رجال رسميين يعطون عليه أجراً - فقد ذكر الكندى فى كتابه (القضاة) أن كثيراً من القضاة كانوا يعينون أيضا (قصاصا)، وكان القاضى يجلس فى المسجد وحوله الناس فيذكرهم بالله ويقص عليهم حكايات وقصصاً عن الأمم الأخرى وهكذا[١]

ثانياً - المدرسة الحجازية (فى المدينة ومكة):

هى مدرسة كتاب السيرة والمغازى[٢]

الذين اهتموا بعرض الظروف والأحداث التاريخية الهامة فى حياة الرسول والمسلمين الأولين.

وقد إعتمدوا على شيئين:

الأول - ما كان دائراً بين العرب من أخبار الجاهلية

الثانى - أحاديث رواها الصحابة، والتابعون ومن بعدهم عن حياة النبى ﷺ وعن ولادته ونشأته ودعوته إلى الإسلام، وجهاده مع المشركين، وغزواته. وعلى الجملة أخباره إلى حين وفاته.

---

(١) امين، احمد: فجر الإسلام ص ١٩٠ ومابعدها

(٢) اصل المغازى - جمع مغزى، ومغزاه وكلاهما معناه موضع الغزو، او الغزو نفسه ثم توسعوا فى معناها فاطلقوها على مناقب الغزاة وغزواتهم، ثم استعملوها استعمالات واسعة للدلالة على حياة النبى ﷺ حتى جعلوها مرادفة للسيرة - انظر
امين، احمد: ضحى الإسلام جـ ٢ ص ٢١٩

ويقسم الدكتور أحمد أمين مؤرخي السيرة والمغازي حسب المصادر التي استقوا منها معلوماتهم إلى ثلاث طبقات(١).

وقد سار هؤلاء الكُتاب على نمط علماء (الحديث) في كتاباتهم، من **الإهتمام بالأسانيد**.

ومن الطبيعي أن تكون المدينة هي أهم مصدر للمغازي فقد وقعت أكثر الأحداث تحت أعين أهلها.

وشملت كتاباتهم ما إتصل بعهد الرسول، والخلفاء الراشدين والأمويين أيضاً ـ وسنشير بإيجاز لإثنين من أبرز المنتمين لهذه المدرسة وما تناولته كتاباتهما، لإلقاء الضوء على هذه المدرسة التاريخية وإهتماماتها، واتجاهات اتباعها ـ وهما عروة بن الزبير، وتلميذه أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله ابن عبد الله بن شهاب الذي اشتهر باسم الزهري(٢).

أما عن **عروة بن الزبير** ـ فهو ينتسب من جهة الأب والأم لأسرتين من أشراف قريش، فأبوه القائد العربي الزبير بن العوام وأمه اسماء بنت أبي بكر(٣).

ولد سنة ٢٣ هـ (٦٤٣م) وتوفي سنة ٩٤هـ (٧١٢م) ونشأ في المدينة وزار مصر وأقام بها سبع سنين، كما زار دمشق عدة مرات. كان زاهداً في الدنيا، مُحباً للعمل، أمضى حياته بين الدرس والتدريس حتى أصبح من فقهاء المدينة، ولم يزج بنفسه في الأحداث السياسية في زمنه، ومع أنه كان ضد سياسة

---

(١) امين، احمد: ضحى الإسلام جـ٢ ص ٣٢٠.

(٢) لمن يريد تفصيلات اكثر عن هذين الفقيهين يرجع إلى:

(أ) الدوري. مرجع سابق.

(ب) هوروفتش، يوسف: المغازي الأول ومؤلفوها(تعريب، نصار، حسين ـ القاهرة ١٩٤٩)

(٣) انظر نسبه كاملا في:

البلاذري. انساب الإشراف جـ٥ ص ٣٧١

الأمويين فقد احترموه لعلمه فكانوا يسترشدون بعلمه ومعرفته فيما يتعلق بالأحداث الخاصة بفترة الرسالة.

فقد أرسل الخليفة عبدالملك بن مروان يسأله عن حوادث تتعلق بالرسالة وقد ذكر الطبرى بعضها(١).

وقد اهتم عروة فى كتاباته بالإسناد فى غالب الأحيان وهذا يُعطى لكتاباته أهمية خاصة ـ لكنه لم يلتزم بهذا فى كل رواياته.

وعلى كل لم تكن قواعد الإسناد قد تبلورت وثبتت بعد فى زمنه(٢).

وقد قال عنه تلميذه الزهرى فيما بعد «كان عروة بحراً لا يكده الدلاء»(٣).

ولعل هذا الوصف ينطبق فعلاً عليه، وقد تناول بالكتابة الأحداث المتعلقة بـ:

١ ـ بعث الرسول، ونزول الوحى، وبداية الدعوة وموقف قريش من المسلمين.

٢ ـ الهجرة إلى الحبشة وأسبابها

٣ ـ ازياد مقاومة قريش للدعوة، وهجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

٤ ـ ثم تحدث عن المغازى.

٥ ـ ورسائل البنى إلى الجهات المختلفة.

٦ ـ الفترة الأخيرة من حياة الرسول.

---

(١)عن صلته بالأمويين ـ انظر:
ابن خلكان: وفيات الاعيان جـ ٢ ص ٤٢٠.

(٢) الاسناد ـ يقصد به ذكر سلسلة الرواة أو المحدثين أى مصدر المعلومات.
فقد أدخل هذا عنصر البحث والتحرى والتدقيق فى الروايات، وبالطبع كان اساساً هاماً للرواية التاريخية والبحث السليم.

(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب) جـ ١ ص ٨٩ ـ ٩٢

ولم يقتصر عروة على المغازى بل تعرض لفترة الخلفاء الراشدين، فتحدث عن حروب الردة فى خلافة ابى بكر، وعن حروب الشام، وعن مواضيع اخرى جاءت فى رسالة عبدالملك بن مروان له.

ويختلف تناوله لهذه الاحداث، فاحياناً لايعدو الأمر إشارات عابرة، وبعض الأحيان يأتى بتفصيلات.

واتبع عروة أسلوب أهل (الحديث) فى كتابته، ومكنته منزلته، وصلاته الإجتماعية من أخذ الروايات والمعلومات من منابعها.

وقد أورد بعض كتب الرسول إلى الجهات المختلفة، وفى هذا اتجاه إلي ما عرف فيما بعد (بالتوثيق) فى الكتابة التاريخية. كما استشهد بالآيات القرانية. وكان أحيانًا يورد بعض الشعر على لسان المشتركين فى الأحداث.

ويتميز أسلوبه بالسلامة، والبعد عن المبالغة، وكان يمهد للحادثة بمقدمة.

وهكذا جمع عروة ماهو متداول عن الأحداث التاريخية المرتبطة بالمغازى، وأسهم فى وضع بعض الأسس التي تقوم عليها الدراسة التاريخية لهذه الفترة الهامة فى تاريخ الإسلام.

وقد أورد كل من الطبرى(١)، والبلاذرى(٢) وكذلك الذهبى(٣) بعضاً مما كتبه عروة عن المغازى.

أما عن **الزهرى**، أبى بكر محمد بن مسلم بن عبدالله بن عبدالله بن شهاب ـ فهناك أيضا اختلاف، فى تاريخ ولادته. لكن يرجح انه ولد عام ٥١هـ (٦٧١م) وتوفى عن ٧٢ سنة فى عام١٢٤هـ (٧٤٢م). وقد أخذ عن أعلام المحدثين الذين يقول عنهم (إنهم بحور للعلم)، ومنهم أستاذه عروة بن الزبير

---

(١) تاريخ الأمم والملوك

(٢) فتوح البلدان.

(٣) تراجم رجال روى عنهم محمد ابن اسحق.

ويذكر أنه قام ببحث واسع فى المدينة عن أحاديث الرسول والصحابة. ساعدته فى ذلك مكانته الاجتماعية، وذاكرته القوية، وإستعانته بالكتابة فقد كان يكتب كل ما يسمع من أحاديث.

ويقال «إنه كان يغشى المجالس، ويزور الأشخاص لهذا الغرض. ذكر عنه الذهبى: «إنه كان يأتى المجالس من صدورها ولايأتيها من خلفها. ثم يأتى الدار من دور الأنصار فلا يُبقى شاباً ولاكهلاً ولاعجوزاً ولاكهلة إلا ساء لهم، حتى يحاول ربات الحجال»(١).

واشتهر الزهرى كمحدث وفقيه بالإضافة إلى كونه مؤرخاً - قال عنه الطبرى: «كان محمد بن مسلم الزهرى مقدماً فى العلم بمغازى رسول الله ﷺ، وأخبار قريش، ورواية لأخبار رسول الله ﷺ وأصحابه»(٢).

وقد وصلتنا مقتطفات من مغازى الزهرى فى ابن اسحق، والواقدى، والطبرى والبلاذرى.

وقد حاول الدورى أن ينظم هذه المقتطفات وتسلسلها تاريخياً ليصل إلى تصور تقريبى لهذه المغازى(٣).

ويتضح منها أنه كتب عن:

بداية الخليقة، وأخبار الأنبياء الماضين، والأحداث التى شهدها النبى قبل الإسلام، وانتقل إلى دور الرسالة فتحدث عن الفترة المكية من بدء نزول الوحى إلى بيعة العقبة، ثم الفترة المدنية من الهجرة فالمغازى والسرايا، ثم رسائل وسفارات الرسول إلى هرقل وكسرى ثم يشير إلى حجة الوداع، والمرض الأخير للرسول ووفاته وأثر ذلك.

---

(١) تراجم رجال روى عنهم محمد ابن اسحق ص ٦٩

(٢) الطبرى المنتخب من كتاب ذيل المذيل (المطبعة الحسينية) ص ٦٧

(٣) الدورى: مرجع سابق ص ٨٢ وما بعدها.

وهكذا أعطى الزهرى إطاراً واضحاً للسيرة النبوية وقد راعى بصورة عامة التسلسل التاريخى للحوادث، وذكر بعض التواريخ ـ مثل تاريخ الهجرة، وتواريخ بعض الغزوات

وهو يهتم إلى حد كبير بالإسناد ـ وقد خطا خطوة هامة نحو الأخبار التاريخية المتصلة ـ حين اتخذ الإسناد الجمعى. وذلك بجمع عدة روايات فى قصة متسلسلة يتقدمها رجال الأسانيد، وهو كذلك يكثر من ذكر الآية القرانية التى تتصل بما يورد من أخبار.

وأسلوبه يتصف بالصراحة والبساطة، والتركيز، وقلما يلجأ للمبالغة، وكان يعتمد على الأحاديث، بينما نظر للقصص الشعبى على أنه مادة للتسلية فحسب(١).

ويورد الزهري أحياناً بعض الأشعار المتعلقة بالأخبار التى يذكرها، وبالإضافة إلى المغازى ـ كتب الزهرى فى الإنساب، وتاريخ صدر الإسلام. كما تناول فترة الخلفاء الراشدين فتحدث عن إختيار أبى بكر خليفة، وعن فترة خلافته، كما تحدث عن إنشاء ديوان الجند فى عهد عمر بن الخطاب

وتحدث عن بعض الأحداث فى عصره، وعن خلافة عثمان ثم تحدث عن الفتنة والانقسامات فى المدينة، فنهاية عثمان وإنتخاب على، وعن النزاع بين على ومعاوية ووقعة الجمل، ومعركة صفين، والتحكيم، والأحداث التى أدت إلى تنازل الحسن بن على ـ ويبدو أنه لم يعالج الفترة الأموية

وهكذا تظهر أهمية الزهرى ـ بالإضافة إلى ما كتبه عن السيرة النبوية فى إلقاء الضوء على الأحداث الهامة الخاصة بظهور الأحزاب السياسية، والجدل بينها فيما يتعلق بمسألة الخلافة ـ هل هى بالإنتخاب أم الوراثة، والنظام الإدارى، والأحداث الخاصة بالنزاع بين على ومعاوية وغير ذلك من أحداث الأمة الإسلامية فى ذلك العصر.

---

(١) الذهبى ـ مرجع سابق ص ٧٣ و٧٤.

وهو بذلك يعرض لنا الأحداث الهامة ـ على الأقل ـ من وجهة نظر رجل من البارزين من رجال المدينة.

ويقال أن الزهرى ذهب إلى دمشق لفترة فى زمن يزيد بن عبدالملك، وأن هشام بن عبدالله الملك جعله مؤدبا لولده، وطلب إليه أن يملى الحديث لفائدة أولاده، «وخصص كاتبين ليصحباه ويحضرا دروسه، وليدونا أحاديثه، وقد وجدت جل تأليفه فى خزانة كتب البلاط الأموى»(١).

وهكذا يُعتبر الزهرى أول من وضع الخطوط الرئيسية لكتابة السيرة النبوية على أساس دراسة جدية، كما يذكر له دوره فى ضبط أحاديث المدينة ورواياتها. فإذا كان عروة بن الزبير رائد علم التاريخ فإن الزهرى مؤسس المدرسة التاريخية فى المدينة.

من هذا العرض نستنتج ما يلى:

١ ـ أن أكثر كتاب السيرة والمغازى كانوا من أهل المدينة المنورة، لأن أكثر أحداث السيرة من تشريع مدنى، ومغاز كان والنبى ﷺ فيها، وكان من حوله من أصحابه أعرف الناس بتلك الأخبار، وبدأ تدوين هذه الأحداث فى المدينة.

٢ ـ كانت السيرة والمغازى جزءً من الحديث يرويه الصحابة، وكان من بعدهم يروونها عنهم.

٣ ـ سلك كتاب السيرة والمغازى مسلك المحدثين الأولين فمنهم من كان يُعنى بالإسناد، ومنهم من لم ينهج هذا المنهج باستمرار.

٤ ـ كل ما ينطبق على الحديث من ناحية تقسيمه إلى أقسام باعتبار صحته، أو ضعفه ينطبق على السيرة والمغازى فيمكن تقسيم هذه الكتابات على نفس المنهج وبنفس المقاييس.

---

(١) الذهبى: مرجع سابق، ص ٧٢.

ثالثا ـ المدرسة العراقية (فى الكوفة، والبصرة، وبغداد):

نشأت مدرسة التاريخ فى العراق فى الكوفة والبصرة وبغداد مستقلة، ومن جذور تختلف عن جذور مدرسة المدينة.

وفى الوقت الذى كانت فيه المدينة ـ مهد الإسلام ـ المركز الأول لإتجاه أهل الحديث ـ كانت البصرة والكوفة مقر الحاميات القبلية، وموطن التقاليد القبلية.

وكان التنافس فى البداية بين البصرة، والكوفة شديداً ثم دخلت (بغداد) التى أنشأها أبو جعفر المنصور واتخذها عاصمة الخلافة ـ فى المنافسة ـ فكانت العصبية للقطر ثم للبلد.

فالعراقيون يتعصبون للعراق على الحجاز، والحجازيون يتعصبون للحجاز على العراق، ثم فى القطر الواحد يتعصب الكوفيون للكوفة على البصرة، والبصريون للبصرة على الكوفة، والبغداديون لبغداد على البصرة والكوفة وغيرهما ونحو ذلك.

فنجد مثلاً الخطيب البغدادى ـ يؤلف كتاباً عن «تاريخ بغداد» ـ يُضمنه تراجم علمائها وزهادها وأدبائها نحواً من ٧٨٣١ ترجمة(١).

وفى الوقت الذى اهتم فيه الرواة بالحوادث والأمور العامة ـ لا بالأخبار القبلية الخاصة ـ إتجه الإخباريون الإتجاه القبلى.

وقام الإخباريون والمؤرخون الأوائل فى العراق، بجهود كبيرة لجمع الروايات القبيلة هناك. وعندما انتقلت الخلافة إلى (بغداد) إحتل العراق المركز الأول فى التاريخ الإسلامى ـ وصار الإهتمام بتاريخ وأحداثه فى المرتبة الأولى.

لكن إلى جانب إهتمامهم الخاص بشؤون العراق أبدى الأخباريون عناية بشؤون الأمة.

---

(١) امين، أحمد: ضحى الإسلام ـ مرجع سابق ص ٨٢ وما بعدها.

ولذا نلاحظ لديهم فكرة وحدة تجارب الأمة وإتصالها، كما نرى فكرة ترابط التاريخ العربي، فقد إهتم الأخباريون بأخبار الشام، والجزيرة العربية بالإضافة إلى أخبار العراق.

فنجد سيف بن عمر يتحدث عن الردة، والفتوحات، وفي الوقت الذي يعتمد فيه على (روايات كوفية) نجده يكمله ببعض الروايات المدنية، والشامية، فهناك إذاً فكرة الدولة، والتأكيد على حقوق الإمام والولاء والطاعة له.

وهكذا يمكن القول بأن الإخباريين لم يهبطوا في كتاباتهم إلى مستوى حزبي، ومع ذلك فقد كان للإقليمية والقبلية أثرهما في الكتابات التاريخية عندهم، فبعضهم أظهر في كتاباته ميولاً علوية، وميولا عراقية الخ.

هذا على أن الإخباريين إستخدموا في كتاباتهم وثائق رسمية، من رسائل ومعاهدات، كما أن بعضهم إضطر لذكر الروايات المعارضة أو المقابلة للرواية التي أوردها، وكان لهذا بالطبع أثره في وضع أساس الطريقة النقدية في التاريخ.

وهكذا تركزت كتابات المؤرخين في هذ المرحلة على الموضوعات التي كانت تشغل بال العرب ـ أو ما نطلق عليه اليوم (موضوعات الساعة) ـ كالردة، والفتوحات، والشورى، والفتنة، وتحتل المعارك، والمواقف بين العلويين والأمويين مكاناً بارزاً من كتاباتهم.

وتميز أسلوب الإخباريين بالسهولة وكانوا يوردون الشعر خلال كتاباتهم عن المعارك مستشهدين به.

على أن الصراع الثقافي الذي إحتدم مع الشعوبية، من جهة، وتوسع تيار الموالي من جهة أخرى، والإنقسامات السياسية التي إجتاحت الدولة الإسلامية،

والمنازعات القبلية، هيأت فرصة لدراسات أكثر دقة، فوجهت جهود لجمع الروايات التاريخية وغربلتها(١).

هذا وقد أدخل اللغويون أسلوب **النقد الداخلى** للمواد التاريخية إلي جانب **النقد الخارجى** للمصادر والرواة(٢).

وقد حظى الشعر على وجه الخصوص بعناية خاصة واهتمام ومحاولة للتمييز بين الشعر الصحيح والموضوع.

كما تنوعت موضوعات الكتابة بتنوع وتعدد المشكلات السياسية والإجتماعية، فأثيرت مسائل تتعلق بالصلة بين قريش والقبائل العربية الأخرى، وغير ذلك من المشكلات، ومسائل تتعلق بالأدب العربى، واللغة، وظهر التأثير الفارسى بتناول تاريخ الفرس المتصل بتاريخ العرب.

---

(١) بدخول الشعوب - غير العربية - فى الإسلام ومشاركتها فى الحركة العلمية وغيرها - أصبح هناك عنصران هما العرب، والموالى - وقد ذكر ابن خلدون أن اكثر العلماء كانوا من الموالى، وأدى هذا إلى إنتشار نزعة شعوبية فى القصص والتاريخ، والشعوبية من القضايا الهامة التى شغلت الكتاب والمؤلفين العرب وترجع إلى الصراع الاجتماعى العنصري - فهناك من يدافعون عن التفوق الفكرى العربى وحجتهم تستند إلى أن الوحى الذى نزل على النبى العربى الكريم هو اساس كل معرفة حقيقية وعلم صحيح - بينما يرى الفريق الآخر من الشعوب التى دخلت فى الإسلام أن الحضارات الأخرى حضارات أسمى وارقى كحضارة الفرس مثلاً - وقد عد (ابن المقفع) مثلا شعوبيا، وراجت بعد ذلك هى القرن الرابع الهجرى نظرية اخرى هى نظرية (الحكمة الأبدية) حاول اصحابها التوفيق بين الفريقين المتصارعين فكريا وحضاريا

ولعل ابن مسكوية فى كتابه الفارسى (جاويدان خرد) أى الحكمة الأبدية يمثل هذه الفكرة فهو يحاول أن يثبت أن جميع الحضارات اليونانية، والفارسية، والهندية، والعربية الإسلامية هى تجسيد لهذه الحكمة الأبدية.

لدور الموالى فى العلم انظر:

امين، أحمد: فجر الإسلام - مرجع سابق جـ١ ص ١٨٣.

وعن الشعوبية والصراع بين الحضارات انظر:

روزنتال، فرانتز: مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى (ترجمة د. أنيس فريحه) ص ١٨٩، ١٩٠.

(٢) عن النقد الداخلى، والنقد الخارجى - انظر: الفصل الثامن من كتابنا هذا (نقد الأصول التاريخية)

وشهد القرن الثالث الهجرى مرحلة جديدة فى تطور الكتابة التاريخية عند العرب، وتميز هذا القرن بوفرة المادة التاريخية، من كتب ومصادر وروايات فى الأمصار المختلفة.

كما برزت ظاهرة أخرى تتمثل فى (الرحلة فى طلب العلم).

وفى سبيل جمع وتصنيف الأحاديث. وترتبت عل هذا نتائج بالغة الأهمية من ناحية تبادل التأثير وتبلور فكرة الكتابة التاريخية المدعمة بالأسانيد.

وظهر فى هذا العصر من أئمة المؤرخين عدد كبير نذكر منهم:

ابن قتيبة (ت ٢٧٠ هـ - ٨٨٢م): المعارف.

البلاذرى (ت ٢٧٩ هـ - ٨٩٢م): فتوح البلدان وأنساب الأشراف.

اليعقوبى (٢٨٢ هـ - ٨٩٨م): الأخبار الطوال.

الطبرى (ت ٣١٠ هـ - ٩٢٣م): تاريخ الأمم والملوك - وجامع البيان فى تفسير القرآن.

ولو تاملنا كتابات هؤلاء المؤرخين نلاحظ ما يلى:

١ - **ابن قتيبة** - يسد حاجة قراء عصره إلى تاريخ شامل موجز، فهو يجمل خبرة الأمة، كما يُعبر عن النظرة العالمية للتاريخ، ويجابه الحركة الشعوبية فى الميدان الثقافى.

٢ - أما **البلاذرى** فى كتابه فتوح البلدان - فهو يعبر عن الواجب الأول للمسلم وهو الجهاد، وعن دور العرب التاريخى، بينما فى كتابه الثانى «انساب الأشراف» يعالج موضوعا يتعلق بالأرستقراطية العربية - مركز الثقف فى المجتمع العربى فى نظره.

٣ - أما **اليعقوبى** - فيكتب تاريخاً عاماً، فهو يمثل النظرة العالمية

للتاريخ - وإن كانت تبدو فى ثنايا كتاباته ميوله العلوية الشيعية مثل كثيرين من كتاب المدرسة العراقية.

٤ - وفى كتاب (الأخبار الطوال) للدينورى - يظهر تأثير العراق وفارس على الكتابة والأدب العربى، ويعطى تفسيراً تاريخياً لإشتراك العرب والفرس فى السلطة فى العصر العباسى.

٥ - أما الطبرى - فبالإضافة إلى الناحية الروحية الدينية التى تتمثل فى تفسيره للقرآن - فإنه يمثل النضج الذي وصلت إليه الأمة، والمثقفون على وجه الخصوص من إلمامهم بالأحداث الهامة - فهو يعبر عن فكرة وحدة تجارب الأمة. وكذا تكامل الرسالات، فالتاريخ فى نظره تعبير عن مشيئة الله.

وعلى كل تميزت كتاباتهم جميعاً بالدقة ومحاولة تحدى الحقيقة، وقلة التحريف، وعدم الإنحياز، والإهتمام بالإسناد، ونقد المصادر، والرجوع فى كثير من الأحيان إلى السجلات، والأوراق الرسمية، أو ما يعبر عنه اليوم (بالوثائق الأصلية)

كما تتسم كتاباتهم بالتركيز، ونلمس فيها الإلتزام بخطوط واضحة فى التفكير والكتابة.

رابعا - مدرسة التاريخ فى مصر والشام:

تكونت فى مصر والشام مدرسة أول أساتذتها من الصحابة الذين رحلوا إلى هذه الأقطار، ثم أخذ عنهم التابعون، وأخذ عن التابعين تابعوهم. وقد عُد هؤلاء الصحابة مصريين أو شواماً لنزلوهم هذه البلاد وإستيطانها.

ومن الشخصيات البارزة فى تاريخ مصر العلمى (يزيد بن أبى حبيب الأزدى) اشتهر بالناحية التاريخية، فيروى عنه الكثير مما ذكره عن فتوح مصر وفتنها وحروبها(١).

---

(١) امين، احمد: ضحى الإسلام - مرجع سابق ص ٨٧ ومابعدها.

وكان مسجد عمرو بالفسطاط مركز الحركة العلمية فى مصر كما هو مركز الحركة الدينية. وقد بدأ تاريخ مصر وأخبارها فى شكل حديث فالذى بدأه هم (المحدثون).

والمؤسس الأول لمدرسة مصر للتاريخ الإسلامى فى مصر هو عبدالله ابن عمرو بن العاص (ت ٦٥هـ)، وتبعه كثيرون نذكر منهم الإمام الليث بن سعد (ت ١٧٥هـ)، عبدالرحمن بن عبدالحكم (ت ٢٥٧هـ)[١]، وأبو عمر الكندى (ت ٣٥٠هـ)[٢]، والحسن بن زولاق[٣].

وإلى جانب الفسطاط إشتهرت مدرسة (الإسكندرية)، ولعل ذلك كان إمتداداً لمدرسة الإسكندرية قبل الفتح، والمعروف أن الحركة الإسلامية ظلت لفترة محصورة فى الغالب فى الفسطاط والإسكندرية حتى انتشر المسلمون فى البلاد. وتغلغوا فيها عقب سنة ٢١٦هـ، ولعبوا دوراً هاماً فأصبحت مصر دولة رائدة لها مكانتها التاريخية فى العالم الإسلامى[٤].

وفيما يتعلق بالشام. فقد نزل بها كثير من الصحابة والعلماء وحدثوا هناك عن رسول الله، وعلموا الناس الأخبار والأحكام - ويذكر عن أبى مسلم الخولانى قوله «دخلت مسجد حمص فإذا فيه نحو من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبى ﷺ»[٥]

ومن إشتهر من علماء ومؤرخى الشام - الأوزاعى - (عبدالرحمن بن عمرو) نزل دمشق ثم بيروت ومات فيها سنة ١٥٧ هـ - قيل إنه اشتهر فى

---

(١) صاحب كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس

(٢) مؤلف كتاب الولاة والقضاه - تناول تاريخ مصر من الفتح العربى إلى وفاة محمد الأخشيد

(٣) صاحب كتاب «العيون الدامع فى حلا دولة بنى طغج» تحدث فيه عن تاريخ الدولة الأخشيدية

(٥) ضحى الإسلام ص ٩٦

الحديث والفقه، وكان له مذهب كمذهب مالك، وأبى حنيفة، وقد عمل أهل الشام بمذهبه حيناً، وانتشر مذهبه ايضا بالأندلس لرحيل عدد من التابعين له المعتنقين لمذهبه إلى الأندلس، ثم حل محل الأوزاعى الشافعى فى الشام ومذهب مالك فى الأندلس.

على كل هو عَلَم من أعلام الشام نذكره على سبيل المثال فقط.

وقد اشتهر الكتاب والمؤرخون فى الشام بمعرفتهم للسير وبالكتابة فى فتوح الشام وتاريخه.

والأوزاعى له كتاب تناول فيه شرح النظام الحربى للمسلمين، وكانت هذه الكتب والأحاديث فى الفتوح وما إليها نواة كتب (تاريخ الشام) كما هو الشأن فى تاريخ مصر.

ولما جاء العهد الأموى كانت دمشق حاضرة الدولة الإسلامية، وكان الخلفاء والأمراء عربا خلصاً فى دمهم وفى ذوقهم، أحب شىء إليهم التسامر بأحاديث العرب وأيامهم وأخبارهم.

وهكذا أصبحت الزعامة العلمية فى العصر الأموى للشاميين أصلاً، أو موطناً، أو ونادة، وظل الأمر كذلك حتى جاء العصر العباسى فتحول الأمر إلى بغداد مع تحول الحاضرة من دمشق إلى بغداد(١).

---

(١) فى مجال الحديث عن انتقال مراكز العلم تبعا لتغيير الركز السياسى للدولة اشير إلى مدرسة الاسكندرية وانتقالها وتطوافها إلى بلدان مختلفة مع ملاحظة ان إسم هذه المدرسة لم يكن يمثل معهداً رسمياً بل مراكز للدراسات التى كان ولاة الأمور يعيرونها عنايتهم ـ فقد نقلت بأمر الخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى إنطاكية، لكن بقيام الخلافة العباسية فقدت سوريا ومدنها ايضاً اهميتها فنقلت المدرسة المذكورة من انطاكية إلى حيران فى عهد المتوكل واستقرت اخيراً فى بغداد ـ انظر البحث القيم المنشور فى مجلة اكاديمية العلوم (اركيون) الكاتب ماكس مايرهوف عن نهاية مدرسة الاسكندرية تبعا لبعض المؤلفين العرب.

Meyerhof, Max: La fin de L'Ecole d'Alexandrie d'après quelques auteurs arabes (Archeion 1933), PP. 1-16.

ولابد من الإشارة لما كان بالشام من مدارس فقهية وغيرها لتعليم القانون الرومانى، وأشهرها مدرسة (بيروت) ـ على كل لم يعد للشام فى العصر العباسى منزلتها العلمية الأولى فقد خرج العلماء والكتاب من الشام إلى العراق فتحولت الزعامة إلى العراق.

خامسا ـ مدرسة التاريخ فى قرطبة (الأندلس):(١)

حكم العرب الأندلس فى الفترة من ٩٢ هـ إلى ٨٩٧ هـ (٧١٠ م إلى ١٤٩٢م) ـ ومنذ فتح العرب الأندلس على يد **موسى بن نصير ومولاه طارق** ابن زياد صارت هذه البلاد ولاية إسلامية تابعة لدمشق (من ٩٢ هـ إلى ١٣٨هـ) ثم أصبحت دولة مستقلة عن خلافة المشرق يحكمها أمراء وخلفاء من بنى أمية منذ عهد عبدالرحمن بن هشام بن عبدالملك (١٣٨ ـ ٣٩٩هـ). (٧٠٥ ـ ١٠٣١م). وفى عهد الخليفة هشام المؤيد أصبح صاحب السلطان الفعلى هو الحاجب، وذلك ما يُسمى فى تاريخ الأندلس باسم (الدولة العامرية)، ثم كانت الفتنة البربرية، واقتسم الطامعون مدن الأندلس وحكمها (ملوك الطوائف) وضاعت سيادة قرطبة بذهاب الخلافة الأموية. وفى عهد دولتى المرابطين والموحدين صارت بلاد الأندلس ولاية تابعة للمغرب واخر من حكم الأندلس من المسلمين بنو الأحمر فى غرناطة(٢).

وانتشرت بالأندلس المكتبات فى قرطبة، وفى غيرها من المدن الهامة، وقيل إنه كان بالخزانة الملكية بقرطبة وحدها أكثر من ربعمائة ألف مجلد(٣). وقد

---

(١) لمن يريد التوسع في دراسة (التاريخ عند عرب الأندلس) يرجع إلى:
ـ بالنثيا: تاريخ الفكر الاندلسى (ترجمة حسين مؤنس).
ـ العبادى، احمد مختار: التراث العربى الأسبانى (عالم الفكر ـ المجلد الثانى ـ العدد الأول).

(٢) لمن يريد التوسع فى الدور الذى لعبه المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين (بطل معركة الزلاقة ١٠٨٦) ثم دور الموحدين فى الأندلس ـ انظر:
الجمل، شوقى: المغرب العربى الكبير.

(٣) الروميلى: العلم عند العرب واثره فى تطور العلم العالمى (ترجمة د. عبدالحليم النجار، د. محمد يوسف موسى) ص ٣٤٥

اتسمت الحياة الثقافية منذ البدء بالإعتماد على المشرق الإسلامى وتقليد أهله. فهاجرت كتب المشارقة إلى الأندلس بكثرة(١).

ومع ذلك فإن أوضاع الأندلس نفسها الممثلة فى الصراع المستمر الداخلى والخارجى - أثرت فى كتابات المؤرخين وجعلتهم يشعرون بأن للأندلس تاريخاً يستحق التخليد. ويتمثل الصراع الخارجى فى الغزوات والمرابطة والجهاد فى الثغور. وأما الصراع الداخلى فيتمثل فى الفتن وثورات الطامحين والمنشقين عن طاعة قرطبة

ويكفى أن يراجع القارىء كتاباً فى التاريخ الأندلسى حتى يجد فيه التاريخ مرتبا على حسب سنوات الغزو.

ومن أوليات صور هذا التخليد أن نظم الشعراء الأراجيز التاريخية من ذلك أن (يحيى بن حكم الغزال) نظم قصيدة طويلة فى «فتح الأندلس» ذكر فيها السبب فى غزوها، فصل فيها الوقائع بين المسلمين وأهلها، وعدد الأمراء عليها وأسماءهم - كما أن (تمام بن عامر الثقفى) له أرجوزة فى ذكر إفتتاح الأندلس وولاتها من وقت دخول طارق بن زياد إلى آخر أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم.

ونظم ابن عبد ربه أرجوزة فى غزوات الإمام عبدالرحمن الناصر من سنة ٣٠١ إلى ٣٢٢ هـ

وقد أهتم مؤرخو الأندلس بوصف القلاع الحصينة والحرب البحرية والأحداث الداخلية وغير ذلك من تاريخ هذه البلاد. ولعل ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) فى رسالته بعنوان «بيان الأندلس وذكر علمائه» التى كتبها ردا على إتهام الحسن بن محمد اليمنى القيراوانى أهل الأندلس بالتقصير فى تخليد أخبار علمائهم - يعطى صورة عن بعض من برز من مؤرخى الأندلس(٢)

(١) عباس. احسان: تاريخ الأدب الأندلسى ص ٢٨ (عصر سيادة قرطبة)
(٢) نفس المرجع سابق ص ٢٩١ (نقلا عن المقرى فى نفح الطيب)

فيذكر العديد ممن ألفوا فى تاريخ الأندلس(١).

وقد اشتهر من مؤرخى الأندلس كثيرون نذكر منهم:

ـ أحمد بن محمد الرازى التاريخى (ت ٣٤٤هـ): مسالك الأندلس ومدنها وأمهات مدنها وأخبارها.

ـ ابن الفرخى، أبو الوليد (ت ٤٠٣هـ): تاريخ العلماء والرواة للعلم الأندلسى.

ـ أبو عمر بن عبدالبر (ت ٤٦٣هـ): الدرر فى اختصار المغازى والسير.

ـ ابن حيان القرطبى (٣٧٧ ـ ٤٦٩هـ / ٩٨٧ ـ ١٠٧٦م) وقيل إنه ألف نحو خمسين كتابا أشهرها «المتين» فى ستين جزءً، و«المقتبس فى تاريخ الأندلس».

ـ أبو عبدالله محمد بن أبى الحمبرى الأندلسى (ت ١٠٩٥م) وأصله من قرطبة أيضا، ومن مؤلفاته «جذوة المقتبس» وهو عن تاريخ علماء الأندلس

ـ ولسان الدين أبو عبدالله محمد المعروف بابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ ١٣٧٤م)، وكان وزيراً لأبى الحجاج يوسف سلطان (غرناطه) وله كتاب «الإحاطة فى تاريخ غرناطة» ـ الذى أخذ عنه المقرى(٢)

ـ وأبو العباس **أحمد المقرى** (ت ١٠٤١ هـ ـ ١٦٣١م) أصله من المغرب وهو صاحب كتاب**«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»** ـ تحدث فيه عن تاريخ الأندلس من فتحها إلى غزو الملك فرديناند غرناطة.

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠٢ وما بعدها.

(٢) كان ابن الخطيب عالما اهتم على الأخص بالتاريخ، صنف تواريخ كثيرة لخلفاء المشرق، والأندلس، وافريقية مثل كتاب: الحلل الموشية، والحكمة البدرية فى الدولة الناصرية، وله أيضاً كتابات عن أخبار الرحلات وأوصاف المدن الأندلسية يتعرض فيها للعلماء الذين لقيهم، والأماكن التى زارها، ويقال أن كتبه تبلغ الستين لكن لم يبق لنا منها إلا نحو الثلث، طبع بعضها طبعات تختلف من حيث دقتها ومحاولة تحقيقها.

هذا وقد اشتهر عدد كبير من الأندلسيين بحب الرحلة والتجوال فى البلاد الإسلامية وغيرها، ولهم رحلات مشهورة اسهمت فى كشف النقاب عن تاريخ العرب وحياتهم فى العديد من الأقطار التى انتشروا فيها بالإضافة إلى التعريف بأماكن لم تكن العالم المتحضر يعرف عنها شيئا. نذكر منهم على سبيل المثال الرحالة ابن جبير (٥٤٠ ـ ٦١٤هـ/ ١١٤٥ ـ ١٢١٧م) صاحب الرحلة المشهورة باسمه ـ كذلك يذكرفى هذا المجال ابن بطوطة، وابو عبدالله محمد بن عبدالله بن محمد ابراهيم اللواتى الطنجى المولود فى طنجة سنة ١٣٠٣م والمتوفى بمراكش سنة ١٣٧٧م، وكذلك ابن الوزان، الحسن بن محمد (ليون الأفريقى) وغيرهم كثيرون يضيق المجال عن حصرهم.

هذا بالإضافة إلى شهرة الأندلسيين فى الفلسفة. وتكفى الإشارة إلى الفيلسوف ابن رشد[١]، وابن زهر، وابن طفيل الذى ترجمت كتبه إلى عدد كبير من اللغات الأوربية، وابن باجة، وابن البيطار، وابن فرناس، وابن الخطيب، والفيلسوف العالمى ابن خلدون والعالم الصوفى ابن عربى، وغيرهم من الأعلام[٢].

وقد نافست قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس بغداد فى مكتباتها، واستهواء العلماء للمكث بها فقد جاء إليها كثير من العلماء من البلاد العربية ولاسيما عندما اخذ بنو أمية فى مجاراة خلفاء بنى العباس فى الافاضة على العلماء والمؤرخين ـ ويكفى أن نشير إلى أن معاهد العلم فى قرطبة، واشبيلية،

---

(١) هو ابو عبدالله محمد بن احمد بن محمد بن رشد ـ ولد فى سنة ٥٢٠هـ (١٢٦م) فى اسرة عربية اصيلة، استقرت بالأندلس واشتهرت بحب العلم، وقد عاش فى عهد الدولة الموحدية التى غلبت فى شمال افريقيا وبلاد الأندلس.
وللمزيد من التفاصيل أنظر:
قاسم، دكتور محمود: فلسفة ابن رشد واثرها فى التفكير الغربى وهى محاضرة القيت بنادى الخرجين بالخرطوم فى ١٤ فبراير ١٩٦٧ وطبعت بعد ذلك.

وطليطلة ومرسيه وغيرها من بلدان الأندلس وكان لها الفضل فى نشر نور العلم فى سماء أوربا ذاتها(١).

وكانت المدارس العليا بقرطبة ومكتبتها العظيمة قبلة طلاب العلم فى كل انحاء الشرق والغرب - وقد جمع الخليفة الحكم الثانى - وهو من أشهر علماء عصره - لمكتبة قرطبة نصف مليون من الكتب القيمة جمعها له عشرات من رجاله. وعلق الخليفة بنفسه على هوامش عدد كبير منها قبل وفاته قبل نهاية القرن العاشر بأربعة وعشرين عاما(٢).

الطريقة التى تناول بها العرب التاريخ

يمكن من الجولة السابقة التى تناولنا فيها المراحل والأطوار التى مرت بها كتابة التاريخ عند العرب أن نرسم الخطوط العريضة لطريقتهم فى كتابة التاريخ.

فقد كان الإهتمام قبل الإسلام **بالأيام والأنساب**، ولذا كانت الروايات الشفوية، والقصص والأخبار تعتبر ملكاً مشتركاً للعائلة أو القبيلة، ولم تكن من إختصاص الأفراد.

وكان طبيعياً أن تتسم بالمبالغة، والفخر وغير ذلك مما يلائم الأوضاع الاجتماعية السائدة لديهم حول الحسب والنسب.

---

(١) خفاجة، محمد عبدالمنعم: قصة الأدب فى الأندلس ص ٢٨
ولمن يريد التوسع فى دور العرب العلمى فى الأندلس يرجع إلى
- بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة حسين مؤنس)
- العبادى، احمد مختار: الإسلام فى أرض الاندلس (عالم الفكر - المجلد العاشر - العدد الثانى)

(٢) الحكم الثانى هو تاسع الخلفاء الامويين فى الأندلس وكان عصره عصر ازدهار ونهضة، غدت فيه جامعة قرطبة منارا للعلماء والباحثين، وكان حجة فى الأدب والتاريخ، يقال إنه قرأ الأربعمائة الف كتاب التى كانت بمكتبته وعلق عليها جميعاً

واستمر هذا الوضع بعد ظهور الإسلام. لكن تركز الاهتمام بعد ذلك على دراسة سيرةالرسول وسير اتباعه، والكتابة فى المغازى والغزوات.

وكان **كتاب السيرة والمغازى** يجمعون الروايات ويرتبونها حسب الأحداث، والسنين بعد التقديم لها بمقدمة فى التاريخ القديم قد يذهبون فيها إلى الطوفان، أو خلق الإنسان(١).

وقد يسوقون الحوادث كقصص مرتبة حسب تاريخها، ويدونونها مستندة إلى مصدرها الأصلى.

ومن ثم برز **الأسناد** كعامل هام فى الكتابة التاريخية فى هذه الفترة - فقيمة الرواية أو الحديث تتوقف على مدى سلامة الأسناد وتسلسله(٢).

وكان **النقد** أو (الجرح والتعديل) كما كانوا يطلقون عليه منصبا على الرواة.

وإرتبط علم التاريخ من البداية بعلم الحديث، وتأثر به، فقط بدأ التاريخ كفرع من فروع الحديث، واتبعوا طريقة علماء الحديث فى تدارس أمهات كتب التاريخ من حيث تلاوتها وتكرار سماعها، وإجادتها.

حدث ذلك مثلا فى مغازى الواقدى وأمثاله من كتب الأصول(٣).

وقد تعرض كُتاب السيرة والمغازى فى هذه الفترة لما تعرض له المحدثون من رواة الحديث وكتابه من تمحيص ونقد وجرح فى ضوء النظر إلى الأسانيد ومصدرها

---

(١) اتجه هذا الاتجاه: الطبرى، وابن مسكويه، وابن الأثير، وابو الفداء وغيرهم

(٢) يشير (روزنتال) الى أن علماء الحديث والفقه كانوا يهتمون بالدرجة الأولى (بالأسانيد)، وكان لذلك اثره فى الكتاب والمؤرخين، حتى أن السيوطى (ت ١٥٠٥م) يقول «إنه ليس فى جميع مؤلفاته الكثيرة خبر أو رواية اوراى لم يدعمه بالاستشهاد» انظر- روزنتال، فرانز: مرجع سابق ص ٩١٧

(٣) العبادى، عبدالحميد: مرجع سابق ص ٤٤

ويضع **إبن خلدون مقاييس** لذلك فيذكر أن الأمر يرجع إلى «كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة...».

ويذكر «أن أهل الحجاز اشتهروا بالدقة فى الإسناد لاستبدادهم فى شروط النقل من العدالة، والضبط وتجافيهم عن قبول المجهول».

كما تحدث عن أئمة الحديث ـ الإمام مالك، والإمام محمد بن ادريس الشافعى، والإمام أحمد بن حنبل، وأمثالهم

وعلى هذا الأساس **رتب ابن خلدون الحديث** إلى صحيح، وحسن وضعيف، ومرسل، ومنقطع، ومتصل وشاذ..(١).

وبنفس هذا الأسلوب كانت النظرة والتقييم لكتاب السيرة والمغازى.

ولاشك فى أن الاهتمام بالإسناد والنظرة النقدية لما يروى ويكتب عن غزوات الرسول وغيرها من الأحداث التاريخية، وغربلة الكتاب بهدف الوصول إلى الحقيقة ـ وضع الأسس الأولى لعملية **النقد التاريخى**.

على أن ظاهرة **النقدوالتحليل** ، **والتعليل**، وربط النتائج بالمقدمات ـ أخذت تنتشر أكثر عندما تعرض المؤرخون العرب للأحداث التى المت بالدولة العربية فأضعفتها وأدت لتفككها وجعلتها مطمعاً لأعدائها.

وكانت المبادىء التى أخذت تُثار فى المجتمع الإسلامى دافعاً لمزيد من التفكير والبحث والكتابة.

فمشاكل الشورى، وفكرة الدولة ـ كما حاول الأمويون تثبيتها ـ والتشيع، ووضع الموالى فى الدولة الإسلامية، والردة، والفتوحات ودور القبائل فيها وغير ذلك من المشكلات، والحوادث التى إجتاحت العالم الإسلامى ـ أتاحت مادة للكتابة التاريخية وفرصة للتحليل والتعليل.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٤ وما بعدها تحت عنوان (علم الحديث).

ولعل هذا يدفعنا لأن نحاول أن نجمل فيما يلى المؤثرات التى أثرت على الكتابة التاريخية عند العرب.

المؤثرات التى أثرت على الكتابة التاريخية عند العرب:

فى ضوء ما ذكرناه يمكن أن نجمل المؤثرات التى أثرت على الكتابة التاريخية عند العرب، وأثرت فى تطورها فيما يلى:

١ ـ **الظروف الإجتماعية والثقافية** السائدة فى شبه الجزيرة قبل الإسلام.

فقد ترتب عليها إهتمام العرب (بالأيام) و(الأنساب).

واستمر هذا الاهتمام بعد ظهور الإسلام.

وكانت (الرواية الشفوية) هى الوسيلة التى تناسب الوضع الثقافى السائد فى ذلك الوقت ـ وكانت المبالغة والإشادة بالبطولات وغير ذلك مما قد لا يساير المنطق ـ شيئا طبيعيا يردده الرواة وتتناقله الأجيال دون نقد أو محاولة تجريح.

٢ ـ الظروف الخاصة **ببعض جهات شبه الجزيرة** كاليمن فى الجنوب، والحيرة فى الشمال:

فقد وجدت بعض النقوش على المبانى القديمة فى اليمن تحكى أخبار ملوكهم وأمورهم العامة التى تدل على نوع من الإستقرار والتقدم الإقتصادى، كما أن ما عُثر عليه فى كنائس وأديرة الحيرة يصور اخبار ملوك الحيرة ويعطى فكرة عن ظروف هذه البلاد السياسية والإجتماعية

٣ ـ وفى **المدينة المنورة** ـ كانت دراسة سير الرسول، وسير أتباعه والمغازى والغزوات دافعاً كبيراً للكتابة التاريخية وقد اتخذت الكتابة فى هذا المجال مسار علوم الحديث من حيث الإسناد ومحاولة تحرى الحقيقة وتنقية

الأحداث التى تروى أو تكتب مما علق بها من تفاصيل قد تبعد بها عن واقعها.

٤ ـ وتأثرت الكتابات التاريخية عند العرب أيضا **بالمشكلات التى** أحاطت **بالأمة العربية** كالشورى، ومسألة الخلافة، وظهور الأحزاب السياسية، والتشيع، والشعوبية والصراع بين العرب والموالى.

٥ ـ وكانت فكرة **الأمة** قد تركزت من البداية فى المدينة المنورة ـ لكن انتشار القبائل العربية فى الأمصار نقل مركز الثقل إلى جهات أخرى خارج شبه الجزيرة العربية.

وبالطبع أثر هذا فى الكتابة التاريخية.

٦ ـ ففى العراق ظهر الإهتمام من جديد **بالقبلية** وأمجادها، كما ظهرت مؤثرات جديدة فى الكتابة التاريخية نتيجة تأثر العرب فى هذه البلاد بتيارات أخرى كالفارسية.

٧ ـ وأدى **التصدام بين المبادىءو الأفكار** كمبدأ القدرية أو حرية الإرادة، ومبدأ الجبر الذى تبناه الأمويون، بالإضافة إلى المشكلات المتعددة التى أثيرت فى ذلك الوقت الى حركة واسعة من النقد والتحليل والتعليل ظهرت فى كتابات مؤرخى القرن الثالث الهجرى على وجه الخصوص.

٨ ـ على أن **نشأة الدواوين وتطورها** خاصة بعد أن إتسع نطاق الدولة العربية وتشعبت مشاكلها ـ أوجد سجلات رسمية، ومصادر أصلية للكتابة التاريخية استخدمها واستند إليها كثيرون من المؤرخين.

٩ ـ وكان إهتمام المؤرخين العرب **مُركزاً فى البداية على شئونهم** ، وما إتصل بهم من دول، ثم اتسع هذا النطاق فشمل الدولة الاسلامية عامة. ثم إتسمت الكتابة التاريخية بشمول أكثر يمثل وحدة التاريخ وتكامله

فكتب أبو عبيدة معمر بن المثنى ـ أخبار الفرس، الموالى ـ كما كتب غيره عن الشعوب الأخرى التى احتك بها العرب.

١٠ ـ ولاشك فى أن المؤرخين العرب، كان لهم دورهم فى إرساء بعض المبادىء الهامة فى الكتابة التاريخية كالاهتمام بذكر المصادر ـ فالمقريزى مثلا (ت ١٤٤٢م) يشير إلى المصادر الثلاثة التى رجع اليها عند تاليفه خطط مصر وهى:

أولاً ـ المصنفات الأدبية.

ثانياً ـ المعلومات التى إستطاع جمعها من أساتذته ومعاصريه من العلماء.

ثالثاً ـ المعلومات المبنية على إختباره الشخصى ومشاهداته.

وقد اعتبروا عدم ذكر المصادر التى أخذ عنها المؤلف نقصا ـ فقد أشار مثلا فخر الدين الرازى فى كتاب «المباحث الأربعون فى أصول الدين» إلى أن الشهرستانى فى كتابه «الملل والنحل» ـ لم يذكر المصادر التى أخذ عنها ويذكر أن فى هذا ما يسيىء إلى الحقائق التاريخية ويشوشها(١).

١١ ـ وقد شدد العلماء المسلمون على ضرورة الأمانة والدقة فى النقل ـ ففى مقدمة كتاب «معجم البلدان» يشير ياقوت إلى ذلك. ويذكر أنه نقل من المصادر بكل دقة وأمانة ـ ويشرح قيمة الإشارة للمصدر الذى أخذ عنه فيقول«إن ذلك ييسر للطالب اطلاعه على آراء أهل الخبرة فى ذلك العلم»(٢).

كما يشير إلى أن العالم عندما يختلف مع آخر فى الرأى يجدر به أن يذكر الروايتين ـ روايته والرواية المعارضة(٣).

---

(١) روزنتال. مرجع سابق ص ١٢٠

(٢)ياقوت: معجم البلدان جـ ١ ص ٩

(٣) ياقوت إرشاد الأديب جـ ٥ ص ٢١٥

وعند **اقتباس رواية من مصدر** - مختصرة عما وردت فى المصدر الأصلى - كانوا يشيرون إلى ذلك فيقولون (انتهى ملخصا..)(١).

وكان المؤرخون العرب **يمارسون النقد** بطريقة مُرضية فكانوا يقابلون بين التواريخ المذكورة فى الخبر أو القصة التى يحققون فى صحتها - فإذا ظهر تباين أو تعارض حكموا بأن الخبر لايمكن أن يكون صحيحا بالشكل الذى ورد عليه.

مثال ذلك ما قام به الخطيب البغدادى صاحب كتاب «تاريخ بغداد» من فضح الوثيقة التى منح يهود خيبر بموجبها إمتيازات خاصة -لكنه اثبت أنها مزورة وغير صحيحة(٢).

وهكذا كان للعرب دورهم فى الكتابة التاريخية بمنهاجها السليم.

أما أهم الموضوعات التى تناولها المؤرخون العرب فهى:

١ - حياة النبى ﷺ من ولادته ونشأته، ودعوته إلى الإسلام، وجهاده مع المشركين وغزواته.

٢ - تاريخ الحوادث الإسلامية من حروب بين بعض المسلمين وبعضهم الآخر. (كواقعة الجمل، وواقعة صفين) وبينهم وبين الشعوب الاخرى.

٣ - الأنساب.

٤ - تاريخ الأمم الأخرى التى احتكوا بها من فرس وروم ونحوهما.

٥ - تاريخ الأديان الأخرى كاليهودية والنصرانية.

٦ - تراجم الرجال.

---

(١) أمين، احمد: ضحى الإسلام جـ ٢ ص ٣١٩ وما بعدها

(٢) رونتال: مرجع سابق ص ١٣١

٧ ـ الأخبار ـ وقد أطلق على رواتها اسم (الأخباريون) مثل الهيثم بن عدى الطائى الكوفى الإخبارى.

وقد يكون أساس الحادثة التى يرونها صحيحا لكنهم عادة يكملونها من خيالهم.

وفى ختام هذا الفصل نشير إلى أنه رغم التطورات السريعة والاتجاهات الحديثة فى علم التاريخ اليوم ومناهجه فى الدول الأوربية وغيرها ـ فإننا يجب الا ندعو لأن ننقل من هذه الدول اتجاهاتها ومناهجها فى البحث التاريخى بل أن نتفهمها ونمحصها ونطور مناهجها ومفاهيمها فى ضوء ذلك وعلى أساس الإدراك لواقعنا وتاريخنا ودورنا نحن أيضاً فى هذا المجال وما يلائمنا

الفصل الثالث

التاريخ بين العلوم الأخرى

مباحث هذا الفصل:

- تطور الدراسة والبحث التاريخي.

(العلل المباشرة لم تعد الاسباب الحقيقية للأحداث).

- المؤرخون يبحثون فى دور الإنسان فى الأحداث التاريخية.

- الإختلاف على وضع التاريخ: علم أم أدب أم فن؟

- الرد على القائلين بأن التاريخ ليس علماً.

- التاريخ علم نقد وتحليل.

- العوامل النفسية التى قد تؤثر فى تشكيل أحداث التاريخ.

- علم التاريخ وإهتمامه بحياة الشعوب.

- مدارس علم التاريخ.

- محاولة الزج بالتاريخ فى زمرة العلوم الطبيعية وما ترتب على ذلك من أخطاء.

- أهداف تدريس التاريخ:

- دوره فى تربية الفرد.

- قيمته لرجال السياسة.

- قيمته كفرع من فروع الدراسات الاجتماعية.

- التاريخ بين المنادين بقصر اهتمامه على الأحداث الساسية والداعين للتركيز على تتبع حضارة الشعوب.

رأينا كيف تطورت الكتابة التاريخية فلم تقتصر الأمر على مجرد ترديد للقصص أو بسط للوقائع التى كان العالم مسرحا لها ـ لكن أصبح من الضرورى دراسة **العلل المباشرة للأحداث**، ثم بحث **العوامل العامة** التى كانت ذات أثر فى تكوينها زمناً طويلاً. فحوادث التاريخ لاتقع فجأة لكنها فى الحقيقة نتيجة سلسلة طويلة من الوقائع، وإن كانت عللها المباشرة تبدو كأنها هى الأسباب الوحيدة للأحداث..

فإذا قصرنا بحثنا مثلاً ـ عن أسباب الحرب العالمية الأولى ـ على الأسباب المباشرة، وعلى تتبع المفاوضات الدبلمية التى انتهت بانقضاض بعض الدول الأوروبية الكبرى على بعض ـ لحكمنا على أن الأقطاب الذين انتهى بهم المطاف إلى الحرب قد أُصيبوا بالجنون ـ فالأسباب المباشرة لايمكن أن تبرر قيام الحرب ـ لكن الأمر فى حقيقته غير ذلك فهو يرجع لسلسلة من العلل البعيدة التى كانت فى قوتها أشد من إرادة هؤلاء الساسة(١)

فالمؤرخ إذاً لابد أن يبحث عن **هذه العلل المتعددة الخفية البعيدة** فى زمنها عن زمن الأحداث ذاتها.

نعم لم يُصبح المؤرخون يقتصرون فى تفسيرهم الأحداث على أن قدرة ربانية قاهرة كانت توجه مجرى الأمور، وتنظم مصير المعارك، فلا تقع أية حادثةخارج إرادتها. مع الايمان بهذه القوة الربانية العظمى ـ فإننا نبحث أيضاً فى دور الانسان فى الحوادث التاريخية. فلم يصبح مبدأ (القدرية) وحده مقبولاً فى تفسير أحداث التاريخ ـ فقد إنقضى العصر الذى كان فيه ينظر إلى الأحداث التاريخية من **الوجهة اللاهوتية فحسب**(٢).

---

(١) لوبون، غوستاف: فلسفة التاريخ (ترجمة عادل زعيتر) ص ١٢.

(٢) ظل علم اللاهوت يطبع كل الدرسات التاريخية، وذكر بعض الكتاب والفلاسفة ان التفسير اللاهوتى هو الذى سيطر على عقول الأوربيين من القرن الخامس إلى القرن الثامن عشر تقريبا، فالروح اللاهوتية هى الدم الذى جرى فى عروق العالم الأوروبى حتى بيكون، وديكارت ولم تأخذ مبادىء التاريخ اللاهوتية فى الزوال إلا بعد أن أثبت تقدم العلم ان جميع حوادث العالم خاضعة لعلل متعددة ومعقدة.

هذا مع أنه حتى فى علوم الفيزياء وغيرها لايزال الكثير من مظاهرها خفى عن إدراك الانسان فلا يكاد يعطى لها سبباً معقولا.

فمثلا الحرارة ـ ما تزال قوة مجهولة فى جوهرها وكل ما نعرفه عنها أنها قادرة على تمديد الأجسام فتقاس بدرجة هذا التمدد.

والثقل ـ قوة مجهولة أيضاً فى جوهرها، لكن نعلم أنها قادرة علي جذب الأجسام فتقاس بطاقة هذا الجذب.

والكهرباء ـ قوة مجهولة فى جوهرها لكنها قادرة على إحداث بعض النتائج الضيائية الحارة، فتقاس أيضاً بشدة هذه النتائج، لكن لاتزال العلل الاصلية قاصرة(١).

فى ضوء ذلك ثار **جدل طويل عن التاريخ**.

هل هو علم؟

وإذا كان كذلك فإلى أى أنواع العلوم ينتمى؟

أم أن التاريخ فن أو أدب؟

وبالطبع أدى هذا لسلسلة أخرى من التساؤلات مثل:

ما الذى يبحث فيه التاريخ؟

ما هو موضوعه؟

ما هى أهدافه؟

ما الفائدة من دراسته وتدريسه؟

ما الشروط اللازم توفرها فيمن يتعرض للبحث التاريخى؟

هل يحتاج هذا الباحث للتزود بقدر من المعرفة فى علوم أخرى؟

---

(١) لوبون، غوستاف: مرجع سابق ص ٢٨.

ما هو المنهج الذى يتعين أن يتبعه الباحث فى التاريخ؟

وسنحاول فى الفصول التالية الرد على هذه التساؤلات وغيرها مما يُثار حول (التاريخ).

اختلف رجال العلم والتاريخ والأدب، فى **وضع التاريخ** وفى نسبته إلى أى فرع من فروع المعرفة الإنسانية، فذهب الأستاذ وليم استانلى جيفونز (Williamn Stanley Jevons) (١٨٣٥ ـ ١٨٨٢) الأستاذ بجامعة لندن فى كتابه «أصول للعلم» إلى أن التاريخ لايمكن أن يكون علماً، لأنه عجز عن إخضاع الوقائع التارخية لما يخضعها له العلم من المادية والمشاهدة والفحص والإختبار والتجربة وبذلك لايمكن فى دراسته **إستخلاص قوانين علمية يقينية** ثابتة على نحو ما هو موجود بالنسبة لعلم الطبيعة أو علم الكيمياء مثلاً. فقيام عنصر المصادفة، ووجود عنصر الشخصية الإنسانية، وحرية الإرادة، مما يهدم الجهود الرامية الى إقامة التاريخ على أسس علمية، على نحو ما يفعل علماء الطبيعة أو الكيمياء أو أضرابهم(١).

وهكذا لخص جيفونز الأسباب التى من أجلها إستبعد التاريخ من زمرة العلوم فيما يلى:

(أ) الاختبار والتجربة أمران غير ممكنين فى الدراسة التاريخية.

(ب) كل واقعة من وقائع التاريخ قائمة بذاتها، ولايمكن أن تتكرر ظروف وقوعها.

(جـ) لايمكن الوصول فى التاريخ الى شىء من قبيل (التعميمات) أو (القوانين العليمة).

وختم هذا العالم الإنجليزى تحليله هذا بقوله:

«فمن السخف إذاً أن نفكر فى التاريخ على إنه علم بالمعنى الصحيح».

---

(١) عثمان، حسن: منهج البحث التاريخى ص ١٦.

وقد أيد هذا الإتجاه كارل. ر. بوبر (Karll. R. Popper) فى كتابه «عقم المذهب التاريخى» ـ فقد أوجز أدلته على كذب المذهب التاريخى فى النقط الخمس الآتية:(١)

١ ـ يتأثر التاريخ الإنسانى فى سيره تأثيراً قوياً بنمو المعرفة الإنسانية.

٢ ـ لايمكن لنا بالطرق العقلية أو العلمية أن نتنبأ بكيفية نمو معارفنا العلمية.

٣ ـ إذن فلا يمكن التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الانسانى.

٤ ـ هذا معناه أننا يجب أن نرفض إمكان قيام علم تاريخى إجتماعى.

ولايمكن أن تقوم نظرية علمية فى التطور التاريخى تصلح لأن تكون أساساً للتنبؤ التاريخى.

٥ ـ إذن فقد أخطأ المذهب التاريخى فى تصوره للغاية الأساسية التى يتوسل إليها بمناهجه.

وبهذا ذلك يتداعى المذهب التاريخى.

وذهب اخرون إلى أن **التاريخ فن**، فالمؤرخ فنان يطلق العنان لطبيعته الفنية وخياله وموهبته الخاصة. فالتصوير الناطق يعبر عن ملامح العصر الذى يتحدث عنه(٢).

هذا ويرى آخرون أن التاريخ **نوع من الأدب** فهو يعنى بالتدوين القصصى لمجرى الأحداث. والقصة بلا شك هى من أبواب (الإنشاء الأدبى).

والإنشاء الأدبى فن، والأمر يحتاج إلى براعة الكاتب ليبرز لنا القصص التاريخية والأحداث فى ثوبها اللائق.

---

(١) بوبر، كارل. عقم المذهب التاريخى (ترجمة عبدالحميد صبره) ـ القصدير

(٢) كاسيرر، ارنست مرجع سابق ص ٥٥

لكن المؤرخ الإنجليزى بيورى (J.B Bury) أستاذ التاريخ الحديث بجامعة كمبردج يذهب إلى «إن التاريخ علم لا أكثر ولا أقل».

وقد نحا هذا النحو عدد كبير من المفكرين القدماء والمحدثين من أمثال هراقليطس، وأفلاطون، وهيجل، وماركس، وأوجست كونت، وستيوارت مل، وشبنجلر، وكارل ملنهايم، وأرنولد تونبى ـ فاعتبروا التاريخ علم يهتم بتتبع تطور المجتمع فى الفترات المتعاقبة

وإن كان المعارضون لذلك ينقدون أن تطور المجتمع يخضع لقوانين معينة فلا يمكن أن يكون للتطور فى نظرهم قانون علمى(١).

وقد ذهب كونت (Auguste Conte) إلى حد القول «إننى سأقدم برهاناً فعلياً على وجود قوانين محددة للأحداث المرتبطة بارتقاء وتطور العنصر الانسانى، كما توجد قوانين لسقوط الحجارة.

إن فكرة التطور تعنى ظهور عوامل جديدة وهذه العوامل تظهر نفسها فى تقدم اللغة، والدين، والفن، والعقل، وهناك منهج واحد يمكن بواسطته معرفة أصل هذه العوامل ـ هو المنهج التاريخى»(٢).

وقد عارض كونت الإعتقاد القائل بوجود شىء فى عالم الإنسان يمكن إرجاعه للمصادفة، أوأن هناك شيئاً يخلو من النظام الطبيعى وحتميته الصارمة

وقد أيد هذا الرأى تين (H. Taine) فى فرنسا فى كتابه "Vie et Corre-spondance" وذهب فى النهاية إلى أن العلل المختلفة للأحداث يمكن أن تنتهى بنا إلى بعض المبادىء العامة التى تتحكم فى كل الوقائع وتقررها ـ وإننا نستطيع العثور وراء كل تنوعات الأحداث التاريخية، وإختلافها إلى درجة كبيرة

---

(١) بوبر، كارل: مرجع سابق ص ١٣٣

(٢) كاسيرر، ارنست. مرجع سابق ص ٤٣ وما بعدها

ـ كما يقول تين ـ على نفس الهيكل العظمى الذى لايتغير كثيراً أو قليلاً، فالوقائع تتغير ولكن هيكلها يبقى[١].

ولعل المعركة كما يذكر الأستاذ هرنشو (Hearnshaw) تنفض إذا وصلنا لتعريف سليم للفظى (علم) و(تاريخ)[٢].

فلو عرفنا العلم بأنه «المعرفة المنظمة المبوبة المقننة» ـ وأن صفة العلم يمكن أن تطلق على «كل دراسة تهدف لتوخى الحقيقة، والوصول إلى حكم قائم على النقد، مع البعد عن كل هوى النفس، وكل افتراض سابق، على أن تقوم هذه الدراسة على الأمور الثلاث: التصنيف، والتبويب، والتقنين»[٣].

أو إذا أخذنابقول الأستاذ ت. هـ. هيكسيلى (T.H. Huxley) «إن العلم هو كل معرفة تقوم على الدليل والاستنباط».

أو كما يقول الدكتور الكسندر هل (Alex. Hill) «إن كل معرفة معقولة هى علم.. فالعلم معرفة روعيت فيها الأوضاع الصحيحة».

كذلك توضيح الأستاذ كارل بيرسن (Karl Pearson) لوظيفة العلم بأنها تنحصر فى تقسيم الوقائع، ومعرفة تتابعها، وأهميتها النسبية.

وتعريف الأستاذ ف. ج. تجارت (F.J. Teggart) للعلم «بانه مجرد البحث المنظم للتصرفات التى تبدو فى الظواهر الطبيعية».

---

(١) كاسيرر، ارنست: مرجع سابق ص ٤٨

(٢) هرنشو: مرجع سابق ص ٣.

(٣) يعرف د. شار مالك ـ العلم بانه هو الذى يؤدى إلى المعرفة ـ ويقسم العلوم الى ثلاثة أقسام رئيسية:

العلوم النظرية: غايتها المعرفة من أجل المعرفة.

العلوم العلمية: تهتم بسلوك الإنسان كانسان.

العلوم الإنتاجية: غايتها الاتيان بانتاج مادى سواء أكان جميلا فقط كالتمثال او الرسم او مفيدا لسد حاجة ما.

انظر ـ مالك، شارك واخرون: البحث العلمى فى العالم العربى (بيروت ١٩٥٦) ص ٥٠ وما بعدها

إذا أخذنا ـ بهذه التعارف ـ فليس ثمت مسوغ لأن نتعجل فى أسقاط التاريخ من عداد العلوم.

فالميتورولوجيا علم رغم أننا لايمكن أن نصل فيها إلى تعميمات خاصة بالجو، فلا زلنا بعيدين عن وضع قوانين ثابتة لكثير من الظاهرات، ولاتزال تنبؤات الخبراء عن أحوال الجو تخطىء، ومع ذلك لا يوجد من ينكر أن الميتورولوجيا علم.

ويقول شارل سينوبس (Seignobos, Ch.) المؤرخ الفرنسى «التاريخ علم ما فى ذلك ريب ـ فهو علم الوقائع التى تتصل بالأحياء من الناس فى مجتمع خلال توالى الأزمنة فى الماضى ـ وهو يدخل فى عداد العلوم الوصفية»(١).

والتاريخ ـ كما يقول هرنشو ـ «يقوم على أصول تضارع قيمتها على أقل تقدير ـ ذرات الكيمياوى النابضة، والكترونيات الفزيقى الراوغة ـ إن التاريخ يبحث فى الفعل ورد الفعل الصادرين عن إنسان غير متغير أصلاً، وعن بيئة غير متغيرة أصلا»(٢).

فإذا أخذنا التاريخ بمعنى (البحث) أو الاستقصاء بهدف الوصول إلى الحقيقة التى من وراء الأحداث فبهذا المعنى يكون التاريخ علمًا.

إنه ليس كالفلك ـ علم معاينة مباشرة، ولا كالكيمياء علم تجربة وإختبار ولكنه علم نقد وتحليل.

وهو كما يذكر ـ هرنشو ـ أقرب العلوم الطبيعية الى (الجيولوجيا) كما

---

(١) من رسالة له بتاريخ ١٩٤١/٢٩/١٠ ـ انظر: أنجلو وسينوبس: المدخل إلى الدراسات التاريخية (ترجمة د. عبدالرحمن بدوى ضمن مجموعة بعنوان النقد التاريخى) ـ المقدمة ص (ا)

وقد رجعنا ايضا للترجمة الانجليزية بقلم (Berr) والتى نشرت فى لندن عام ١٩١٢ واشرنا اليها.

(٢) هرنشو: مرجع سابق ص ٥ وما بعدها

أن الجيولوجى يدرس الأرض كما هى الآن ليعرف ـ إذا أمكنه ذلك ـ كيف صارت الى حالتها الحاضرة ـ فكذلك المؤرخ يدرس الآثار المتخلفة عن الماضى ويحاول أن يفسر بواسطتها وبقدر إمكانه ظاهرة الحاضر.

وكما ان الجيولوجى يجد مادته الأساسية فيما حفظ من بقايا الطبيعة من أدلة قليلة تثبت التطورات الجيولوجية القديمة ـ فكذلك المؤرخ يعتمد فى معرفة الوقائع الماضية على **آثار مادية أو سجلات أو تقاليد**.

يعتمد المؤرخ على ما تعده به هذه الآثار أو السجلات، أو غيرها من مادة علمية ـ بعد أن يتحقق من صحتها، ويستبعد ما يثبت عدم صحته او ما يداخله شك فى صحته فيلقى عليه الضوء، ويحاول بفكره أن يستخلص الأسباب والدوافع التى كانت وراء تلك الوقائع.

ولابد أن يضع فى الإعتبار العوامل الأخرى غير منطق العقل التى تؤثر فى الأحداث الهامة.

إن الكثير من الأفعال الإنسانية سواء فى ميدان السياسة او الفلسفة أو الدين أو الفن لاتمثل إلا **الجانب الخارجى من الإنسان** ـ أما الحياة الباطنية فإنها لاتظهر نفسها إلا بعد النفاذ وراء هذه الأفعال لإختبار طبيعتها واثارها الطبيعية فى قلوب الناس.

وقد ترتب على هذه النظرة ـ تغير موضع بؤرة التاريخ.. فالأحداث أصبحت هامة فقط بقدر إستطاعتها الكشف عن الطبيعة الإنسانية وإزالة الحجب عنها(١).

فهناك أيضاً **إندفاعات الحياة العاطفية اللاشعورية**. وكما يقول ـ غوستاف لوبون ـ «إن العديد من المنازعات التى تزعج حياة الأمم وتسيطر على تاريخها ـ مرجعها إلى الحياة الغريزية التى تولد الشهوات، وسيبقى الأمر، ولا

---

(١) كاسيرر، ارنست: مرجع سابق ص ٦.

رب هكذا حتى اليوم الذى ستتخلص الإنسانية فيه من الحياة اللاشاعرة الوراثية ـ فتبلغ من التطور الكافى ما يكون العقل فيه مسيطراً، ولم تبلغ هذه المرحلة بعد. ولذلك يشتمل التاريخ علي قليل من الحوادث التى أوحى بها العقل المحض(١).

ولعل من الأمثلة القوية لذلك الدوافع وراء الإستعمار الأوروبى فى العصر الحديث. فلاشك فى أن الدوافع النفسية أو الغريزية من حب العظمة وحب التظاهر، والرغبة فى التقليد والمحاكاة، وغير ذلك من العوامل ـ كانت من العوامل التى دفعت الشعوب ثم الحكومات للعمل علي بسط نفوذها على مساحات واسعة من الأرض لم تكن خاضعة لها ـ فالشعوب والدول تتكون من مجموعة أفراد تتحكم فيهم وتسيرهم الغرائز الطبيعية للإنسان(٢).

وإذا سلمنا بأن التاريخ علم نقد وتحليل، وأن الأمر يصل بالمؤرخ إلى حد أن يضع فى إعتباره العوامل النفسية التى قد تشترك وتؤثر فى تشكيل حوادث التاريخ ـ فإننا نستطيع أن نقول أن التاريخ علم يهتم ببحث المتبقى من أحداث الماضى، ومحاولة الإستعانة بها على توضيح الحاضر وتفسيره . وتتسع أبحاث علماء التاريخ لتشمل جميع ما يتعلق بالإنسان وتصرفاته من شئون سياسية وإجتماعية أو ما يتعلق فيها بشئون المال والإقتصاد وغير ذلك ولذا تعددت فروع التاريخ، فهناك التاريخ السياسي، والتاريخ الاقتصادى، والتاريخ الاجتماعى، والتاريخ الحربى(٣).

---

(١) لوبون، غوستاف: مرجع سابق ص ٤١

(٢) من يرد المزيد من التفاصيل عن هذه الدوافع النفسية ـ انظر:
حزين، سليمان: صفحات من تاريخ الأستعمار.
والجمل، شوقى: تاريخ كشف افريقيا، واستعمارها الطبعة الثانية ص ١٤٦ وما بعدها.

(٣) يميز بوبر، كارل ـ بين التاريخ بفروعه المختلفة ـ السياسى، والاقتصادى والإجتماعى،والحربى ـ وبين علوم السياسة والاقتصاد والإجتماع والحرب، ورى أن الفرق يتلخص فى التمييز بين الإهتمام بالقوانين الكلية التى تهتم بها هذه العلوم وبين الوقائع الجزئية المفردة التى يهتم بها التاريخ ـ لا القوانين او القضايا العامة
ملاحظة: لا نقر (بوبر) على هذه النظرة لمهمة التاريخ فهو راى عفى عليه الزمان.
انظر بوبر، كارل: مرجع سابق ص ١٧٢

على أن التاريخ وإن كان فى بداية عهده قد قصر إهتمامه على الشئون المتعلقة بالملوك، والطبقة العليا من المجتمع كالقواد والوزراء - حتى أن البعض عرفه بأنه مجموعة من السير المختارة المتعلقة بطبقةٍ معينة من المجتمع - فإنه كان لابد أن يطور ميدانه بعد أن رسخت أقدام الديمقراطية - وذاعت الإشتراكية، وتعددت الحركات الشعبية منذ منتصف القرن التاسع عشر - فكان لابد من قيام جديد للتاريخ.

لذلك اتجه عدد غير قليل من المؤرخين الى الإهتمام بحياة الشعوب فلم تصبح السياسة، وما تقوم به الحكومات هى مجال التاريخ وأصبح القول «**بأن التاريخ هو سياسة الماضى، والسياسة هى تاريخ الحاضر**» - لغواً لا لا قيمة له.

لذلك نجد المؤرخ الإنجليزى لورد (أكتن) فى عام ١٨٩٥ ينتقد بشدة تركيز المؤرخين على الناحية السياسية وإهمالهم ما يتصل بالجماهير وأفكارهم فيقول «إن اختصاصنا تناول ما هو أبعد مدى من شؤون الساسة، وهو غير خاضع لتشريع الحكومات. أن من واجبنا أن نحيط بحركات الأفكار التى هى علة الحوادث العامة لانتيجتها، وأن نجعلها نصب أعيننا دائما»(١).

ومن الذين أدركوا قصور الكتابة التاريخية المقتصرة على السياسة فقط (فولتير). فقد ذكر «إن التاريخ لن يكون فقط بيانا عن المعارك والعمليات الحربية.. أو عن المؤامرات والدسائس الدبلوماسية والسياسية.. بل إلى جانب الأحداث السياسية عليه أن يرسم صورة لتقدم الاتجاهات الفكرية، والميول الأدبية والفنية لكل عصر، وعليه فى النهاية أن يعرض نظرة عامة للحياة الخلقية بأسرها فى العصر الذى يتناوله»(٢).

---

(١) هرنشو: مرجع سابق ص٩٢

(٢) كاسيرر، ارنست: مرجع سابق ص ٦٨

هذا وقد حاول **فولتير** القيام بكل هذا فى كتابه (عصر لويس الرابع عشر) كذلك فى كتابه (مقال عن العادات Essai sur Les moeurs).

ومع هذا فحتى نهاية القرن التاسع عشر ظل كثيرون لاينظرون **للتاريخ الحضارى** نظرتهم للتاريخ السياسى، وذكر البعض أن هذا النوع من الكتابة والدراسة التاريخية يجب الا تكون مجرد إشارات عابرة أثناء دراسة التاريخ السياسى باعتباره الأصل.

ومع ذلك فلاشك فى أن الذين قصروا النظر إلى التاريخ على أنه (تاريخ للدول) قد أوصدوا أمام أذهانهم إدراك الظروف المتعددة المحيطة بهذه القوة السياسية والمؤثرة فيها.

ونشير إلى أن علم التاريخ وأن كان قد خرج من النطاق الضيق الخاص بالسياسة. ورجال السياسة ونزل إلى (الشارع) حيث عامة الشعب فاهتم بأفكارهم والامهم وأمالهم ـ فقد وجدت مدارس أخرى اهتمت بتوجيه الدراسةالتاريخية وجهات أخرى ـ نذكر منها مثلا مدرسة الاشتراكيين من أتباع كارل ماركس (Karl Marx) (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) فقد دعت إلى التصور الإقتصادى أو المادى للتاريخ.

كذلك ركزت مدرسة أخرى من علماء النفس الإجتماعيين بزعامة كارل لمبرخت (Karl Lamprecht)المؤرخ الالمانى (١٨٥٦ ـ ١٩١٥) على ما أشرنا إليه سابقاً من دوافع غريزية ونفسية وراء أحداث التاريخ.

والحقيقة التى أنتهى إليها المعتدلون من المؤرخين اليوم هى أن عاملا واحداً لايمكن أن ينفرد بتفسير الظواهر المتعددة وأحداث المجتمع التى لاشك فى أنها محصلة العديد من العوامل.

علي أننا نشير ـ ونحن فى مجال بحث وضع التاريخ بين العلوم الأخرى ـ الى أن محاولة بعض المؤرخين فى القرن التاسع عشر الزج بالتاريخ فى رمرة

العلوم الطبيعية ـ أدت إلى الوقوع فى أخطاء لا مبرر لها من حيث طريقةالبحث التاريخى وتعميماته ـ فلا شك فى أن التاريخ:

١ ـ من حيث طرائقه علم نقد لا علم ملاحظة وتجربة، وفى هذا يختلف عن العلوم الطبيعية.

٢ ـ أما من حيث تعميماته ـ فإن التعميم فى التاريخ قد يؤدى إلى نتائج خادعة بعيدة كل البعد عما يمكن أن نطلق عليه لفظ (قانون).

فالتعميم كمنهج تاريخى يؤدى إلى أحكام متناقضة تناقضاً يجعل الحقيقة امراً يصعب تمييزه(١).

على أن القول بأن التاريخ لايمكن الزج به فى زمرة (العلوم الطبيعية) أثار تساؤلاً اخر هو:

ما هى إذاً فوائد التاريخ للفرد وللمجتمع؟

أو بمعنى آخر ـ لماذا نهتم بتدريس التاريخ لأبنائنا؟ وما الذى نهدف إليه من وراء ذلك؟

وهل تحقق دراسة التاريخ هذه الأهداف المرجوة؟

ذهب البعض ـ وفى مقدمتهم ـ الفيلسوف البريطانى كيرد Carid (١٨٢٥ـ ١٩٠٨) إلى القول بأن المعرفة التى لاترتفع عن مستوى الوقائع والجزئيات، والتى لا يربط بين أجزائها قانون من القوانين ـ لاتعتبر «أداة صالحة للتعليم». هذا وإن كان كيرد يذهب إلى أن التاريخ وإن لم يمكن إعتباره علماً يقينياً على نحو ما نعتبر الآليات والبصريات، وحتى علمى النبات ووظائف

---

(١) عن التعميمات فى التاريخ ـ أرجع إلى:
ـ لوبون غوستاف: مرجع سابق ص ٦٠ وما بعدها.
ـ كذلك بوبر، كارل: مرجع سابق ص ١٦ وما بعدها

الأعضاء ـ إلا أنه من حيث طرائقه ونتائجه ـ آخذ على أقل تقدير بشبه قوى جداً من العلوم المذكورة يجيز لنا أن نطلق عليه اسم العلم(١).

ويرى كيرد أن للتاريخ بعض الفوائد، فهو يكسبنا تصوراً صحيحاً للأشياء العارضة الموقوتة بالقياس للأشياء الأبدية الباقية فى حياة الإنسان.

لقد كان التساؤل هو: إذا كانت الحوادث لاتتكرر، وكان من المستحيل الوصول إلى تعميمات تنتظم الظواهر التاريخية ـ فما الفائدة التى يمكن أن تأتى من دراسة التاريخ؟

لاشك فى أن دراسة التاريخ تحقق العديد من الفوائد يمكن أن نجملها فيما يلى:

أولاً ـ قيمة التاريخ فى تربية الفرد:

يرى البعض أن دراسة التاريخ تنشط الفكر وتشحذ الذهن، فالتاريخ اداة لرياضة العقل. بينما يرى آخرون أن دراسة التاريخ ـ دون سواها ـ اصلح الدراسات لتعويد الإنسان الفضائل الخاصة والعامة.. وقليل من الناس من يعارض اليوم فى وجوب الإستفادة من دروس وعبر التاريخ لإلقاء دروس فى الأخلاق خارجة عن نطاق البحث التاريخى ذاته.

فإذا أخذنا بهذه الاتجاهات ـ فإن دراسة التاريخ توسع أفق الطفل، وترفع مستوى الأخلاق، وتبرز العلاقة بين النتائج والمسببات.

وقد ذهب البعض فى تفصيل ذلك إلى أن هناك تماثلاً تاماً بين حياة الفرد، وتاريخ الإنسانية ـ فالإنسان هو العالم الأصغر، والإنسانية هى العالم الأكبر ولذلك يستطيع الفرد عن طريق دراسة التاريخ أن يدرك عن نفسه وعن علاقته بغيره الشىء الكثير مباشرة كما تفيد الشعوب(٢).

---

(١) هرنشو. مرجع سابق ص ١٠٣

(٢) انجلو وسينوبس. مرجع سابق ص ٢٥٠

ثانياً ـ قيمة التاريخ لرجال السياسة:

تتخذ بعض الدول من التاريخ الذى يُدرس فى المدارس وسيلة لنشر المبادىء التى تؤمن بها، سواء أكانت تقديسا للملكية أو الجمهورية، او المبادىء البلشفية أو الفاشستية أوغير ذلك.

فهل يا ترى يحقق تدريس التاريخ هذا الهدف الذى يرمون إليه؟

وهل نجحت محاولة الإستعانة برجال التربية فى محاولة استخدام مدرسى التاريخ فى المدارس العامة ـ كدعاة إلى السلام أو الحرب أو كناشرين لمذهب معين سياسى أو اقتصادى؟.

لقد خرج رجال التربية بنتيجة هامة هى أن بث الدعاة فى المدارس بهذا الشكل لا يحقق بحال ما الغرض منها، بل بالعكس ـ يجعل التلاميذ كلما تقدم بهم السن ـ أميل إلى الشك فيما فُرض عليهم فرضًا فى طفولتهم.

لكن مع ذلك فإن المؤرخ الإنجليزى جون سيلى (John Seeley) (١٨٣٤ ـ ١٨٩٥) يذهب إلى «أن التاريخ مدرسة السياسة، وبدون مقدار يسير منه على أقل تقدير لا يمكن الانسان أن يعنى عناية معقولة بالشؤون السياسية، وبدون حظ موفور منه لا يمكنه أن يصدر حكماً معقولاً فى أى شأن من شؤونها، إن التاريخ دراسة هامة لكل مدنى، ولكن هو الدراسة الهامة الوحيدة الخليقة برجال الحكم والتشريع»(١).

١ ـ هو مدرسة لتعليم طريقة البحث السياسى:

فالتاريخ والسياسة علمان إجتماعيان نفسيان، وكلاً من السياسى والمؤرخ لا مندوحة له عن الإستنباط من وقائع غير متيقنة وأسباب ليست معروفة تماما.

فالمؤرخ عند شروعه فى بحث حادثة معينة لا سبيل أمامه للوصول إلى

---

(١) هرشو مرجع سابق ص ١٠٨

الحقيقة المطلقة الثابتة، وكذلك الشأن فى السياسة، فليس فيها شيء ثابت مستيقن.

ودراسة التاريخ مفيدة جداً من حيث هى مدرسة لتعليم طريقة البحث - فهى تعلم السياسى الحذر، واستقلال الرأى وتهيئه لاكتساب ملكة الاستدلال بالأمثال الظاهرة على البواعث والأفكار الغامضة.

٢ - التاريخ مستودع للأحداث السياسية السابقة:

فالإنسان عندما يبلغ سن النضج تهديه تجاربه السابقة التي تعيها ذاكرته فى سلوكه الحالى، والجنس البشرى بالمثل، لكن التاريخ هو ذاكرة الجنس البشرى.

وقد عبّر الفيلسوف والمؤرخ البريطانى دافيد هيوم (David Hume) (١٧١١ - ١٧٧٦) عن ذلك بقوله: «إذا تأملنا قصر حياة الانسان، ومعرفتنا المحدودة حتى بما يقع فى زماننا - فلاشك فى أننا نشعر بأننا كنا نبقى أطفالاً فى إدراكنا لو لم يقيض لناهذا الإختراع الذى يرجع بخبرتنا إلى جميع العصور الماضية، وإلى أقدم الأمم الخالية، إن الرجل المطلع على التاريخ يمكن ان يقال عنه من بعض الوجوه «إنه يعيش منذ بداية العالم..».

وإذا أدركنا أن الأحداث العالمية مترابطة بعضها بالبعض الآخر بشكل عجيب - يمكننا أن ندرك أهمية التاريخ الحقيقية - فإن نهضة مصر مثلاً لم تكن مستطاعة بغير الشرق، واعتمد اليونان على مصر فى نهضتهم وتسلقت روما ذروة مجدها على ظهر العالم بأسره - وهكذا يخدمنا التاريخ فى تتبع هذه السلسلة من الأحداث المتصلة(١).

٣ - التاريخ أساس التقدم السياسى:

فالتاريخ يُمد السياسى بأكثر من سابقة تمت تجربتها، ووقفه على

---

(١) كاسيرر، ارنست: مرجع سابق ص ٨.

الأصول الواقعية لمشاكل الوقت الحاضر، فكل المشاكل الكبيرة القائمة فى وقتنا الحاضر سياسية كانت أو إجتماعية لهاتاريخ بعيد.

فلا يمكن للسياسى فهم حقيقة المشكلة التى تعترض له إن لم يفهم ويدرس أصولها القديمة.

ثالثاً ـ التاريخ كفرع من فروع الدراسات الإجتماعية:

لم يعد التاريخ ينظر إليه النظرة الضيقة التى أخذ بها بعض المورخين ـ فاعتبروا مجاله دراسة شؤون الحكومات، والحروب والشؤون المتعلقة بالإدارة والدبلوماسية فحسب ـ بل أصبحت للتاريخ مجالات أخرى أوسع، ولعلها اهم من شؤون الحكم والإدارة والسياسة.

لقد اصبح يُنظر للتاريخ علي انه فرع من عائلة كبيرة هى (الدراسات الإجتماعية)، ولذلك فإنه تربطه بأفراد هذه العائلة روابط وثيقة.

ومن هنا كانت صلة التاريخ بعلم الاقتصاد والجغرافيا والانثروبولوجيا (علم الاسنان)، وعلم الآثار وغيرها من العلوم الاجتماعية.

وقد ذهب البعض إلى أن التاريخ يجب أن يركز على (حضارة الشعوب) ويصرف النظر عن الحروب والحوادث السياسية. بينما وجد من تمسك بالتاريخ السياسى وإعتبره قمة الدراسات التاريخية.

وكما يقول د. أسد رستم «إن الطرفين كانا محقين فى بعض ما ذهبا إليه وانهما تطرفا فى القول فى ان واحد ـ ففى تاريخ الحضارة ما لا يستغنى عنه لفهم الماضى، وفى تاريخ الحروب والحوادث السياسية ما لابد من إيضاحه لفهم الأحوال والظروف، الي نعيش فيها»(١)

أما عن علاقة التاريخ بالعلوم الاجتماعية الأخرى وبغيرها من العلوم فسنتعرض له بشىء من التفصيل فى الفصل القادم

---

(١) رستم، اسد. مصطلح التاريخ ـ مرجع سابق ص ١١٢

وفى ختام الحديث عن أهمية التاريخ والبحث التاريخى أشير إلى ما ذكره الدكتور شارل مالك من أن العلوم الإنسانية فى عصرنا هذا إما أنها أهملت لحساب العلوم الطبيعية وللإغراءات التكنولوجية، أو طبقت طريقة هذه العلوم الطبيعية على العلوم الإنسانية فى تعسف وضيق نظر - ويتساءل:

ماذا ينفع الانسان لو فهم أسرار الطبيعةجميعها وسخر قواها كلها ولم يعرف مع ذلك نفسه؟

ماذا ينفع الإنسان لو ضيع عقله فى الجزئى والحسى والسطحى والعابر والحسى، ولم يتحرق فى قلبه الى الأشد حسنا، والأشد أصالة وعمقا والأشد شمولا وكياناً؟.

وينتهى إلى التحذير من الإكتفاء الحزن بالعلوم المادية الوضعية، ولنعرف من معين الروح العارفة ليس للمادة فحسب، والمتاكدة ليس من الطبيعة فحسب، بل العارفة والمتاكدة من نفسها ومن الإنسان ومن الله(١)

---

(١) مالك، شارل وآخرون: مرجع سابق ص ٢٠ وما بعدها

الفصل الرابع

العلـــوم الأخـــرى
الوثيقة الصلة بعلم التاريخ

مباحث هذا الفصل:

- صلة التاريخ بعلم الجغرافية.
- أهمية العلوم السياسية، ودراسة النظم الدستورية للباحث التاريخي.
- علم الاقتصاد وعلاقته بالتاريخ.
- علم الانسان (الانثروبولوجيا) وصلته بالتاريخ.
- علم الآثار (الأركيولوجيا) وصلته بالتاريخ.
- علم المسكوكات (النُميات) وأهميته للمؤرخ.
- علم الوثائق وأهميته للباحث التاريخي.
- اللغة ودراسة الخطوط وأهميتها.
- معرفة الأختام، والأحبار، والأقلام.
- علوم القرآن والتفسير - والعلوم الاجتماعية والفلسفية.
- العديد من العلوم الأخرى.

(يختلف حسب موضوع البحث والفترة الزمنية)

❁ ❁ ❁

رأينا أن علم التاريخ فرع من فروع الدراسات الإجتماعية (Thosiology) ولذا فهو وثيق الصلة **بالعلوم الإجتماعية الأخرى** ـ كعلم الاقتصاد، والجغرافيا، وعلم الانسان (Anthropolgy) وعلم الآثار (Arceology).

وصلة التاريخ بهذه العلوم، وبالعديد من العلوم الأخرى التى سنذكرها تجعل من واجب المؤرخ أن يلم بقدر من هذه العلوم ـ اذ بدونه لايمكنه اداء رسالته كباحث تاريخى على أكمل وجه.

والبعض يُطلق على هذه العلوم تعبير (العلوم الخادمة) أو (العلوم المساعدة) (Scinces ancillaires)(١).

فالظواهر الجغرافية كالسطح، والمناخ، والنبات وغيرها عظيمة الأثر فى الأحداث التاريخية(٢).

فإذا كانت الجغرافيا تعنى بالأرض وما يرتبط بها من الظاهرات التى أسلفنا ذكرها ـ فإن التاريخ يهتم بالإنسان الذى يعيش علي هذه الأرض وتؤثر فيه بظاهراتها المختلفة وعواملها المتباينة، كما يؤثر هو فيها ـ فهى المسرح والإنسان هو الممثل الذى يؤدى دوره على هذا المسرح.

ولاتحتاج الصلة بين طبيعة الأرض والعوامل المختلفة المرتبطة بها، وبين حياة وتاريخ من يعيشون عليها للشرح والتفصيل.

ففى السهول الخصبة والوديان كوادى النيل، والدجلة والفرات وغيرها.. قامت أقدم الحضارات البشرية التى عرفها التاريخ كالحضارة الفرعونية القديمة، والحضارة الأشورية والبابلية. إذ أتاحت هذه الظروف الجغرافية للإنسان ـ فرص الإستقرار وبناء المساكن واستغلال موارد البيئة المختلفة

---

(١) George, P. B. The Relations of Geography and History (Oxford 1924).

(٢) Semple, Ch., Influence of Geographic Environment (N.Y., 1911).

للزراعة أو الرعى أو غيرها. وفى هذه الظروف الهياة تقدم الإنسان فى مختلف المعارف والفنون فاستطاع أن يستفيد إلى أكبر حد ممكن مما قدمته له الطبيعة من إمكانيات، واستطاع أن يتغلب على ما صادفه من عقبات.

هذا بينما نجد البيئة الصحراوية والبيئة الجبلية بيئات طاردة تدفع الإنسان للرحيل وعدم الإستقرار بحثاً عن أماكن أكثر خصباً أو موارد أخرى للرزق.

والعوامل الجغرافية المختلفة تؤثر فى نشاط الإنسان وتشجيعه على العمل، كما تؤثر فى طباعه وأخلاقه ومزاجه وفى شحذ ذهنه أو العكس.

وإرتبط تاريخ العديد من الأقطار **بموقعها الجغرافى** بالإضافة إلي المعالم الجغرافية الأخرى فتاريخ مصر على مر العصور تأثر بموقعها فى الركن الشمالى الشرقى من قارة أفريقيا وبسواحلها المطلة على البحرين المتوسط والأحمر، فكان إتصالها مستمراً بالحضارات التى نشأت فى حوض البحر المتوسط وعلي سواحله من فينيقية وإغريقية ورومانية - كما أن الصحراء الغربية الواسعة هيأت لمصر دائماً حماية طبيعية فلم تتعرض لجيوش منظمة غازية من هذه الجهات فى تاريخها الطويل إلا فى مرات محدودة، ولم تنجح هذه المحاولات فى الغالب - فحتى فتح الفاطميين لمصر من الغرب لم ينجح إلا بعد العديد من المحاولات - وبعد استعدادات وتدابير خاصة للتغلب على الصحراء بجفافها. وفى العصر الحديث - رغم كل التقدم العلمى - واجه جيش (روميل) فى الحرب العالمية الثانية مصيره المحتوم نتيجة امتداد خطوط تموينه عبر الصحراء القاحلة الشاسعة غربى مصر.

وكان لموقع مصر الفريد وتحكمها فى طرق التجارة بين الشرق والغرب عبر البحرين الأحمر والمتوسط - حتى قبل حفر قناة السويس - أثره فى ثراء وقوة دولة المماليك الحاكمة فيها - ولما أكتشف البرتغال طريق رأس الرجاء

الصالح وتحولت التجارة ـ مؤقتا ـ الى هذا الطريق الجديد تأثرت بذلك دولة المماليك، وكان هذا العامل الجغرافى من أهم عوامل ضعفها وسقوطها.

وتأثر تاريخ مصر الحديث بهذا الموقع الفريد ـ خاصة بعد حفر قناة السويس ـ فأصبحت مطمعاً للإنجليز وهدفاً من أهدافهم ـ كيف لاوهى تتحكم فى الطريق القصير المؤدى لجوهرة التارج البريطانى (الهند)، وقد حاول بونابرت ضربهم ـ ليس فى بلادهم نفسها بل باستيلائه على مصر وتحكمه فى هذا الطريق. ولذا كانت السياسة الإنجليزية تجاه مصر طوال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين مبنية على هذا الإدراك لأهمية موقع مصر الجغرافى. وكان إحتلالهم لمصر عام ١٨٨٢ وحرصهم ـ أثناء مفاوضاتهم المتعددة للجلاء ـ على الإحتفاظ بقواعدهم فى منطقة قناة السويس قائماً على هذا الإدراك لأهمية منطقة القناة لهم.

وما يقال عن موقع مصر الجغرافى يُقال عن مناطق أخرى مماثلة مثل عدن التى احتلتها انجلترا عام ١٨٣٨، وجبل طارق التى لاتزال تحتلها الى اليوم، واهتمامهابعدم سيطرة أية دوة أخرى على مدينة (طنجة) التى أصرت رغم إتفاقها الودى مع فرنسا فى ١٩٠٤ علي أن تبقى دولية. وهناك العديد من الأمثلة يمكن أن تساق لتوضيح أهمية دراسة العوامل الجغرافية لفهم حقائق التاريخ.

وموقع الجزائر البريطانية نفسها أثر على تاريخها أبلغ الأثر ـ فظلت بعيدة الى حد كبير عن غزو أعدائها لها فى عقر دارها ـ يُقال ذلك عن حروبها مع بونابرت أو حروبها مع هتلر والنازيين ـكما كان لهذا الموقع أثره فى السيادة البحرية للإنجليز فأكتسبت أساطيلهم شهرة واسعة وحرصوا على تحطيم كل منافس لهم فى هذا المجال فأغرقوا الأرمادا الأسبانية فى ١٥٨٨، كما حالوا دون دخول أية قوة بحرية أخرى منافسة مياه البحر المتوسط والمياه الدافئة الأخرى التى اعتبروا أنفسهم سادتها ـ فرسموا سياستهم تجاه الدولة

العثمانية على أساس إبقاء الأوضاع كما هى عليه حتى لا يشاركهم الروس السيادة فى هذا البحر.

ولعبت العوامل الجغرافية الأخرى كالأنهار والجبال وغيرها دوراً هاماً كعوامل ربط، أو كعوامل لتحديد الحدود بين الدول المختلفة(١)

ومن جهة الأنهار كعوامل ربط لعل نهر النيل وربطه بين مصر والسودان وغيرهما من أقطار حوض النيل وأثر ذلك فى تاريخ هذه الأقطار على مر العصور يعطى أوضح مثل.

ولعل الدور الذى لعبه مناخ روسيا فى هزيمة الجيوش الألمانية فى الحرب العالمية الثانية أكبر دليل على الأثر الجغرافى فى مجرى التاريخ. فرغم أن الروس كانوا فى عام ١٩٤٢ قد فقدوا خلال حربهم ضد الألمان الحقول الغنية بالحنطة فى أوكرانيا، والجهات الصناعية الهامة فى حوض الدينبر، كما استحوذ الألمان على مناجم فحم حوض الدونتز، وجميع أنحاء شبه جزيرة القرم - ما عدا سيباستبول - لكن حل شتاء روسيا القارس البرد على الألمان وهم يدقون على أبواب موسكو ولينينجراد فاستعصى عليهم فتحها واضطروا للتراجع وانتهى الأمر بالتسليم فى ٣١ يناير ١٩٤٣، وهكذا تضافرت الطبيعة على هزيمتهم كما حدث من قبل لجيوشهم فى أكتوبر ١٩٤٢ فى معركة العلمين التى كانت نقطة تحول فى مصير الحرب فى ذلك الميدان الحيوى. والعجيب أن يتفق تسليم القوات الألمانية فى قطاع ستالينجراد تماماً مع دخول الجيش الثامن البريطانى الذى أكتسح الجيوش الألمانية فى الصحراء الغربية - تونس(٢)

---

(١) للدراسة التفصيلية للأنهار وغيرها كحدود سياسية انظر

Boggs, S W : International Boundaries

(٢) للمزيد من التفاصيل عن هذه المعارك ودور العوامل الجغرافيه فيها - انظر

ميشر هـ ا ل تاريخ أوربا فى العصر الحديث (تعريب أحمد نجيب هاشم، ووديع الضبع - ١٩٦٤) ص ٦٨ وما بعدها

ويعتبر ثيودور مومسن (Theodor Mommsen) وهومن المدرسة التاريخية الألمانية الحديثة ـ **علوم السياسة** ودراسة النظم السياسية والدستورية بالإضافة إلى اللغات الأصلية فى مقدمة العلوم اللازمة للباحث التاريخى فقد ذكر مخاطباً تلاميذه: «إن الذى يترك الجامعة ولديه معرفة مستفيضة باللغات اللاتينية، واليونانية والألمانية والنظم السياسية لهذه الشعوب، يكون صالحاً لأن يصبح مؤرخا ـ أما الذى يفتقر إلى هذه المعرفة ـ فإنه لا يصلح. فإذا أحطنا علمنا بهذه المسائل فمن المؤكد أن البحث فى المصادر وتصوير الأحداث العملية سوف يأتي من تلقاء نفسه، كما تُسقط السحب الكثيفة أمطارها.. ولكن إذا لم تحصلوا على هذه المعرفة فأنكم ستقطفون ثماراً تعطب بمجرد إمساككم بها»(١).

وعلم الاقتصاد من أشد العلوم لزوما للمؤرخ فقد وصل الأمر إلى أن ماركس وصديقه الألمانى إنجلز Engles (١٨٢٠ ـ ١٨٦٥) ذهبا إلى تفسير التاريخ تفسيراً إقتصادياً محضاً. ومع إعترفنا أن هذا الإتجاه مبالغ فيه إلى حد كبير ـ فلا شك فى أن العوامل الإقتصادية لعبت دوراً بارزا فى تاريخ الإنسان. ففى العصور القديمة كان العامل الاقتصادى من أهم العوامل فى حياة الإنسان الذى كان يكافح كفاحاً مريراً من أجل الحصول على قوته، وأصبحنا ندرس تاريخ الإنسان الحضارى على أنه تدرج من الالتقاط إلى الرعى إلى الزراعة إلى الصناعة وهكذا.. وأصبحنا نقيس حضارة الانسان بمدى استغلاله لما تقدمه له البيئة من إمكانيات، ومدى تغلبه على العقبات التى تعترض طريقه فى سبيل تذليل حياته وسد احتياجاته.

ورغم التطور الذي حدث فى الحضارة البشرية فليس من شك فى أن الشؤون الاقتصادية قد عادت من جديد لتفرض نفسها كعامل قوى جبار فعال يؤثر فى علاقات الشعوب، وفى تحركاتها

---

(١) كاسيرر، أرنست: مرجع سابق، ص ٦٢.

وعوامل الانتاج التى قد تتوفر فى دولة دون غيرها، توجه إلى حد كبير النشاط الاقتصادى، وبالتالى وضع الدولة بالنسبة للكفاية لسد إحتياجات سكانها أولاً ثم بالنسبة لعلاقاتها الخارجية بالدول الأخرى، فإذا توفرت الظروف الملائمة لقيام زراعة ناجحة وأحسن استغلالها وفرت حاجات السكان، وقد تونر فائضاً للتصدير. وهكذا نفس الشىء إذا توفرت عوامل قيام الصناعة الناجحة من مواد خام وقوة محركة وأيدى عاملة والآلات وأسواق لتصريف الانتاج.

والطريقة التى توزع بها الثروة بين أفرادالشعب، والفروق بين الدخول المختلفة تحدد أوضاع الطبقات المختلفة فى المجتمع وتؤثر فى نظام الحكم. ولعل المثل الواضح لذلك التغيير الذى طرأ على المجتمعات الأوربية نتيجة الثورةالصناعية، وظهور الرأسمالية الوطنية ثم ظهور العمال كقوة لها تأثيرها فتكونت النقابات العمالية وأحزابها وأصبح لها وزنها وتأثيرها على تسيير دفة الحكم وقد أشرنا إلى أثر العامل الاقتصادى فى قوة دولة المماليك، وأثر انهيار اقتصادهم فى ضعفهم العسكرى وسقوطهم.

وقد برز **العامل الاقتصادى فى الحروب**، فإستخدم كل من نابليون وانجلترا هذا السلاح ضد الطرف الآخر، وظهر هذا العامل أيضا فى الحربين العالميتين الأولى والثانية ولعل دخول الولايات المتحدة الأمريكية فى صف الحلفاء ومساندتها الإقتصادية لهم كان كفيلا بترجيح كفتهم فى كل من الحربين

ولعب العامل الإقتصادى أيضاً دوراً هاماً فى الإستعمار الاوربى الحديث، فكان من أهم أهداف الدول الاستعمارية الاستحواز على المواد الخام الأولية والأسواق التى تسدحاجات الدول الصناعية، ومن ثم كان الاستعمار الإقتصادى (Economic Imperialism) هو المظهر البارز للإستعمار الحديث.

والبترول وهو من أهم مصادر الطاقة اليوم يلعب دوراً حاسماً فى تحديد علاقات الشعوب، ومصادره مطمع أنظار الدول الكبرى كلها. فالبترول الإيرانى، وبترول العرب كان ومازال يؤثر فى الأوضاع السياسية الداخلية

والعلاقات الخارجية للبلاد المنتجة له. وقد استخدم العرب بنجاح سلاح البترول ضد اسرائيل فى حرب عام ١٩٧٣، وما زالوا يلوحون باستخدامه. وله بلاشك اثره وفاعليته على الدول الكبرى التى تحتاج إليه والتى يتأثر اقتصادها وحياة سكانها بما يصلها من هذا البترول بل وبأسعاره أيضاً فإرتفاعها أو انخفاضها يؤثر فى الأوضاع الاقتصادية فى هذه البلاد المستغلة له.

والتبادل التجارى بين الدول وعلاقاتها الإقتصادية ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالعلاقات السياسية وتتأثر بها وتؤثر فيها.

وأمامنا أمثلة للدول الأفريقية التى نالت استقلالها حديثا ـ فقد ظلت كثير منها مرتبطة فى اقتصادها بالدول المستعمرة السابقة، وأصبحنا نجد دولا فى نطاق الإسترليني وأخرى مرتبطة إقتصادياً بدول الفرنك الفرنسى ـ وأصبح من الحقائق الواضحة أن الأستقلال السياسى للدولة مرتبط إلى حد كبير باستقلالها الاقتصادى وقدرتها على سد حاجات سكانها دون الاعتماد على الدول الكبرى الاستعمارية.

ومن العلوم الأخرى الوثيقة الصلة بالتاريخ علم الانسان (الأنثروبولوجيا)، وعلم الآثار علم (الاركيولوجيا) ـ وقيمتهما للمؤرخ لا جدال فيها خاصة فى إلقاء الضوء علي حياة الإنسان الأول وحضارته وعلى العلاقات والعادات والتقاليد السائدة فى المجتمعات الإنسانية أو التى كانت سائدة ودلالتها على ما كان بين هذه المجتمعات وغيرها من المجتمعات الأخرى من علاقات وروابط تاريخية.

ومن العلوم الأخرى التى لا يستغنى عنها المؤرخ علم المسكوكات من نقود وغيرها بما تحمله من كتابات وصور للملوك والحكام ـ فسنوات ضرب النقود حددت إلى حد كبير سنوات حكم بعض الحكام التى لم تكن معروفة كما أن بعض هذه المسكوكات ضُربت فى مناسبات تاريخية معينة فكانت دليلا عليها، وتقدم علم النميات (Numismatics) تقدما كبيراً فأصبحت العملة تدرس

من نواح متعددة من حث ما هو منقوش على وجهيها، والمادة الخام التى ضربت منها ونسبة المادة النفيسة للمادة البخسة ودلالتها.

وقد كانت العملة من دلالات إستقلال الدولة وتمتعها بشخصيتها المميزة.

ومن العلوم الأساسية الوثيقة الصلة بالتاريخ **علم الوثائق** (Diplomatics)(١).

والوثيقة ـ كما سبقُ أن أوضحنا مراراً.. هى المصدر الأصلى الذى يعتمد عليه الباحث التاريخى أو المادة الخام التي يصوغ منها نسيجه، فالإستفادة منها يستلزم القدرة على قراءة الوثيقة، ثم التحقق من صحتها وذلك يتطلب معرفة اللغة التى كُتبت بها الوثيقة والخط الذى كُتبت به، والطريقة التي كانت متبعة فى ذلك العصر للكتابة الرسمية، والأسلوب المستخدم فى الكتابة والمصطلحات ـ إلى غير ذلك من الدراسات التى لابد منها للتحقق من أن الوثيقة أصلية وسليمة ليست مزورة، وهكذا تتضح أهمية علم الوثائق وهو علم قائم على أسس وأصول، وترتبط بذلك دراسة الأختام التى كانت تختم بها الأوراق الرسمية وغير ذلك من الدراسات كدراسة الشفرة التى تصدر بها بعض المكاتبات ومفتاحها وطريقة قراءتها. وقد تقدم هذا العلم أخيراً تقدما كبيرا وتفرع وأصبح هناك متخصصون فيه ومدارس لتدريسه..

كذلك ـ كما أشرنا ـ فإن **دراسة الخطوط** المختلفة المستخدمة فى عصر من العصور وتطورها ومميزاتها تفيد فى الحكم على سلامة الوثيقة من عدمه وهذا بالطبع يهم الباحث التاريخى فى المقام الأول.

---

(١) وجدت بفرنسا مدرسة خاصة لدراسة أصول وأسس التوثيق ويطلق عليها أسم (مدرسة الوثائق (Ecole Des Chartes) ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات كاملة هذا وقد أشار البعض لأهمية ما أطلق عليه (علم الكشافات) أو (علم المراجع التاريخية) وقد أشار لذلك لانجلوا (Langlois)فى كتاب له عن «علم المراجع التاريخية»

"Manuel de Bibliographie Historique"

أنظر انجلو وسينوبوس مرجع سابق ص ٢٣. وكذلك ص ٣٨

وأذكر على سبيل المثال أننى إطلعت فى دار الوثائق بالرباط بالمغرب على العديد من الوثائق العربية بالخط المغربى القديم - وهى وثائق لها أهميتها لأنها تكشف عن حقائق فريدة، وتحتاج الإستفادة منها لمعرفة هذا الخط وتفهمه. ويقال نفس الشىء عن المخطوطات العربية الضخمة التى تخص تاريخ البلاد العربية بشمال وغرب أفريقيا وتاريخ بلاد الأندلس طوال فترة الحكم العربى - التى تزخر بها (مكتبة الأسكوريال) فى مدريد بأسبانيا.

ويحتاج المؤرخ للالمام باللغة التى كانت سائدة فى العصر الذى يدرس تاريخه أو الدولة التى ارتبطت بهذا التاريخ. فمثلاً الباحث فى تاريخ مصر فى العهد العثمانى عليه أنْ يلم باللغة التركية التى كانت سائدة فى ذلك العصر ليستفيد من الوثائق الأصلية الهامة التى بدار الوثائق بالقلعة وأغلبها بالتركية والقليل منها ترجم إلى العربية فى أوقات معينة ولدراسات محددة(١).

كذلك من يتعرض لتاريخ الإستعمار الفرنسى فى غرب أفريقيا أو شمالها أو للإستعمار البريطانى فى نيجريا مثلاً أو جنوب أفريقيا - لابد أن يعرف اللغة الفرنسية أو الانجليزية معرفة طيبة ليستفيد من الوثائق بالمكتبة الأهلية بباريس أو التى صدرت عن فرنسا أو إنجلترا أو المحفوظة فى أرشيف وزارة الخارجية فى البلد المستعمر (كان يطلق على بعضها فيما قبل وزارة المستعمرات).

ولاشك فى أن الاعتماد على ما نُشر من مجموعات الوثائق أو المعاهدات والاتفاقات لايغنى بحال من الأحوال، ولابد أن يطلع الباحث بنفسه على الوثائق ويختار منها هو ما يرى نشره أو استخدامه وما يلقى الضوء على موضوع بحثه وما يؤيد رأيه أو ينقض رأياً شائعاً إلى غير ذلك. فهذه هى الاضافة الحقيقية المطلوبة من الباحث.

---

(١) اللغات يطرأ عليها تطور، والألفاظ قد يكون لها مدلولات تختلف فى العصور المختلفة فمثلا اللغة اللاتينية واللغة الفرنسية المستعملتين فى العصور الوسطى تختلفان تماما عن اللاتينى الكلاسيكى، والفرنسى الحديث - وسنشير لهذا بالتفصيل فيما بعد.

فإجادة اللغة التى كُتبت بها الوثائق الأصلية المتصلة بالبحث أمر جوهرى، ولا يجدر بالباحث التاريخى أن يتصدى لموضوع يعلم أنه يجهل لغة مصادره الأصلية إلا إذا كان عازماً أكيداً على تعلم هذه اللغة والرجوع للوثائق الأصلية المكتوبة بها.

وقد طالب الفيلسوف الألمانى شليجل (Schegel) دارسى التاريخ الألمانى بأساس لُغوى قوى يمكن الباحثين من البحث فى السجلات، وانتقد ظاهرة أن ما قام به الأجانب ـ كما ذكر ـ أكثر بكثير مما أنجزه الباحثون الألمان، وكان لمقاله هذا فضل كبير فى الحث على ما عُرف «بدراسة اللغويات التاريخية»(١)

وفيما يتعلق بدراسة الوثائق الأصلية باللغة الأصلية لهذه الوثائق أشير إلى أن بعض الدول استنت سنةحميدة بأن **تلتزم كل فترة بنشر بعض الوثائق** التى مرت عليها فترة زمنية تبيح نشرها دون المساس بمصلحة الدولة مثال ذلك الكتاب الأزرق البريطانى والأصفر الفرنسى.

هذا على أننا نُشير أيضاً إلى أن بعض المعاهدات والإتفاقات الدولية التى تنشر نصوصها فى حينها ظهر فيما بعد إن ما نُشر منها لايمثل إلا جانباً واحداً من الحقيقة، فهناك إتفاقات سرية ملحقة بالاتفاقات المعلنة وبعضها أكثر من البنود الأصلية أهمية ـ كذلك أشير إلى أهمية الإطلاع ـ إن أمكن ـ على محاضر جلسات المناقشات بين الأطراف المختلفة مما يستلزم اطلاع الباحث بنفسه على ما دار فى هذه الجلسات فهو يكشف عن حقائق مُذهلة لايمكن الوصول إليها من مجرد الاطلاع على ما نُشر أو ترجم من النتائج النهائية للمناقشات ـ وكل هذا يتطلب معرفة الباحث باللغات الأصلية للدول الأطراف فى الأحداث التاريخية.

---

(١) كاسيرر، ارنست: مرجع سابق، ص ١٨.

وهناك العديد من العلوم الأخرى وأوجه المعرفة التى قد يحتاجها الباحث التاريخى.

على أن أهمية كل علم منها ـ إلى جانب الثقافة العامة المشتركة تختلف حسب الفترة الزمنية للباحث وتخصصه.

فالباحث فى تاريخ مصر القديم يلزمه الإلمام باللغة الهيروغليفية بينما يحتاج الباحث فى فترة الحكم الرومانى لمصر إلى الإلمام باللغة اللاتينية او اليونانية وهكذا. وقد أشرنا إلى أن من يتعرض لفترة الحكم العثمانى يلزمه معرفة اللغة التركية ـ بينما قد تكون دراسة الوثائق مثلاً وطريقة الحكم عليها والإستفادة منها شيئاً عاماً مشتركاً لاغنى عنه للغالبية من الباحثين فى مختلف عصور التاريخ بإعتباره أساساً من أسس البحث العلمى السليم. وهكذا يستطيع الباحث ـ أن يحدد ألوان المعرفة اللازمة له ـ وأن يحدد بعد ذلك موقفه من الإقدام على البحث فى هذا الإتجاه او الإحجام عن هذا الميدان.

ويعطى د. أسد رستم مثلا لمن يتصدى لدراسة موضوع فى تاريخ العرب فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ـ يسوقه كمثل لضرورة الإلمام بما أطلق عليه (العلوم الموصلة) وهى تسمية مشتقة من علم التفسير ـ فيذكر أن هذا الباحث يلزمه على الأقل أن يُلم باللغات العربية، والتركية، والفرنسية، والإنجليزية، والألمانية إذ أن أصول هذه الحقبة من التاريخ ترد فى هذه اللغات(١).

هكذا يحتاج الباحث فى التاريخ للإلمام بألوان متعددة من المعرفة ليقوم بعمله على خير وجه.

هذا بالإضافة إلى الحاجة إلى معرفة الخطوط العربية المختلفة.

---

(١) رستم، أسد: مرجع سابق ص ٦ وما بعدها.

الفصل الخامس

بعض الصفات الواجب توفرها فى المؤرخ

(السلوك الخاص بالباحث)

مباحث هذا الفصل:

- التحلي بالجلد والصبر.
- الدقة والأمانة.
- الحيدة اللازمة للمؤرخ.
- عدم تكوين رأى مسبق (إرادة المعرفة)، أى الرغبة الحقيقية فى الوصول للمعرفة.
- ملكة الربط بين الأحداث المتناثرة.
- الإستعداد لتقبل آراء الغير.
- الحاسة الزمنية.
- التأمل الهادىء.
- الموضوعية (لا تتنافى مع قوة الشخصية والاتزان العلمى).
- القدرة على التعبير بأسلوب علمى.
- التواضع.

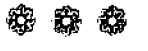

البحث التاريخي ليس بالأمر السهل اليسير، فهو يتطلب أن تتوفر في المؤرخ شُروط قد لا يستلزم توفرها في غيره ممن يتعرضون لألوان أخرى من الكتابات الأدبية مثلا أو البحوث في مجالات أخرى.

فمن الصفات الأساسية التي يجب أن تتوفر في المؤرخ - أو ما أطلق عليه المؤرخ الألماني تيودور مومسن (T. Momson) «بالسلوك الخاص بالباحث في مجال التاريخ»(١).

الجلد والصبر:

فالباحث في ميدان التاريخ يحتاج للسعي وراء المعرفة مهما تكبد من جهد ووقت، فهو يواصل البحث في دور الوثائق، ويطلع على العشرات منها وقد لا يجد فيها ما يُضيف جديداً أو يخدم بحثه، ومع ذلك فيجب ألا ينتابه اليأس بل يتابع البحث طالما هو يسير في الطرق السليم، ونفس الشيء قد يحدث فيما يتعلق بالعديد من المراجع التي يلزمه أن يرجع إليها لتناولها العصر الذي يبحث فيه أو لصلتها بالموضوع الذي يكتب عنه، وقد يطوي عشرات الصفحات فلا يكاد يجد جديدا يخدم موضوعه.

والبحث في الوثائق الأصلية بأوضاعها الحالية ولغتها، وطريقة كتابتها إلخ.. يحتاج إلى صبر وأناة في محاولة لحل غموضها أو معرفة مدلولها أو ظروف صدورها.

ومن يستعجل الوصول إلى المعلومات التي تخدم بحثه يُخطيء في الحقيقة لأن هذا سيكون بلاشك على حساب الدقة المطلوبة.

يُضاف إلى هذا أن الوثائق نفسها ليست غالباً تحت أيدي الباحثين فهي مبعثرة هنا وهناك في دور المحفوظات، والباحث عليه أن يسعى إليها حيث هي،

---

(١) تيودور مومسن - مؤرخ ألماني - اشرنا إليه اكثر من مرة، ومن اشهر كتبه «القانون الدستوري الألماني» كتبه في السنوات ١٨٧١/ ١٨٧٥ - وله كتاب اخر عن «التاريخ الروماني»

وإلا يُهمل منها شيئاً مهما كان بعيد المنال ومهما تطلب الوصول إليه من جهد ومال ووقت ـ فالمطلوب من الباحث أن يلم بكل ما هو متعلق ببحثه من وثائق أو كتابات غير منشورة أو منشورة.

ويشير أنجلو وسينوبوس إلى ذلك بقولهما: «إن الفضيلة الأساسية فى المؤرخ هى الصبر.. لا تشتغل بسرعة، وأعمل وكان فى الإبطاء فائدة دائما.. هذه نصائح سهل قولها، أما إتباعها فيحتاج إلى مزاج رصين ـ فالناس العصبيون الشديدو الانفعال المتعجلون دائماً للانتهاء ـ يمكنهم أن يعملوا عملا حسنا فى مهن أخرى غير البحث التاريخى»(١).

«إن الباحث فى مجال التاريخ ـ كما يذكر يجب أن يطرد من ذهنه أن البراعة (Savoir-faire) يمكن أن تعوض عن المعرفة (Savoir) وأن العمل الردىء السهل بشىء من البراعة يمكن أن يحل محل العمل الجيد»(٢)

ويذكر المؤرخ الألمانى فون رانكه (Ränke L. Von) انه يجب أن يكون شعار المؤرخ «اعمل ـ ولا تتكلم»(٣) فوظيفة المؤرخ ـ فى رأى هذا المؤرخ «هى بذل كل جهد سعياً وراء الحقيقة، ليس التذرع بالزخارف الخطابية، فالمؤرخ عليه أن يدرك انه مطالب بأن يستخرج الحقيقة من وسط الأحداث الغامضة».ويقول «يجب إلا ينفر المؤرخ من غموض العالم المتغير، بل عليه أن يتعلم كيف يعتاد الظلام، وأن يرى الواقع من خلال الأحداث الغامضة»(٤).

كذلك يجب أن يتصف المؤرخ **بالدقة الكاملة، والأمانة** فى عرض وجهات النظر المختلفة، وكما سنرى فيما بعد أنه مطالب بأن ينسب كل رأى لصاحبه ولمصدره دون إلتواء أو محاولة إخفاء شىء من الحقيقة

---

(١)انجلو وسيبوبوس مرجع سابق ص ٩٧

(٢) نفس المرجع س ١٠٥

(٣) كاسيرر، أرنست مرجع سابق ص ٢٩

(٤) نفس المرجع ص١٠٥

وإذا اهتزت ثقتنا فى الباحث فى التاريخ مرة واحدة إهتزت الأرض من تحت اقدامه، وأصبح مُعرضاً للشك فى كل ما يقوله وما يورده من أفكار وآراء.

وهناك مشكلة تثار دائماً.. هل يُقدم المؤرخ الناحية القومية، وما تطلبه منه من آراء معينة بعيدة عن الحقيقة إذا حدث تعارض بين الاثنين أم العكس؟

والواقع إننا نتطلب من المؤرخ الحيدة الكاملة والنزاهة التامة، فهو يورد الحقائق مستندة إلى مصادرها الأصلية وحين يتعرض للتحليل أو التعليل يجب أن يلتزم بالمنطق والأسلوب العلمى الذى يبنى النتائج على علل وأسباب سليمة بحيث لاتتعارض النتائج مع المقدمات

والمؤرخ يجب ألا يُكون رأيا مسبقاً فى الأحداث، ثم يحاول بعد ذلك أن يجمع الأدلة والبراهين على صحة هذا الرأى فلا شك فى أن هذا الإتجاه سيؤدى إلى الإنزلاق والخطأ، بعكس لو جمع المعلومات عن الحادث الذى يتعرض له من مصادرها الأصلية، واستعرض مختلف الآراء التى كُتبت عن هذا الحادث محاولاً تحليلها والوصول فى ضوء كل ذلك إلى الرأى المرجح الذى يرتاح هو إليه، ويعتقد أنه - فى ضوء كل المعلومات المتاحة له - هو الرأى السليم.

ويعُبر المؤرخ الألمانى فون رانكى (Ranke Von) عن ذلك بقوله «إن عدم محاولة المؤرخ السعى وراء الحقيقة المجردة خطيئة فادحة، إنه ضعف فى إرادة المعرفة» - وأشار إلى وجوب الفصل بين الأمر الشخصى والواقعى، ووجوب الإلتزام بالموضوعية التاريخية. كما عبّر عن ذلك أيضاً الفيلسوف الألمانى جوتيه (J.W Von Goethe) بقوله «إن المؤرخ يجب أن يتصف أولاً وأخيراً بحب الحقيقة»(١).

تكرر مهما يكن الأمر فإننا فى الوقت الذى نتطلب من المؤرخ الصدق

---

(١) إنجاسيون أرنسدت، مرجع سابق ص ٣٠.

الكامل فى إبداء الرأى والإلتزام بالحقيقة المجردة ـ لا نستطيع أن نجرده من العوامل القومية.. أو المصالح الوطنية التى قد تؤثر عن قصد أو غير قصد ـ فى كتاباته وآرائه التى ينتهى إليها.

نضرب مثلا بكتابات وآراء بعض الكتاب عن دور بلادهم فى افريقيا وغيرها من المناطق التى كانت ميداناً لإستعمارهم ـ فمثلاً سيسل جون رودس (Cecil John Rhodes) المستعمر البريطانى ـ الذى أضاف بجهوده ووسائله للإمبراطورية البريطانية أجزاء هامة فى جنوب أفريقيا ووسطها ـ نجده يبرر هذا العمل ـ كما برره غيره من دعاة الإستعمار بأن الجنس الانجلو سكسونى عليه رسالة وواجب تجاه هذه الشعوب لنشر الحضارة فيها.

وبالغ هؤلاء فى دور دولهم الحضارى وتجاهلوا الحضارات التى كانت للشعوبالإفريقية قبل مجىء الاستعمار، وصوروا عمليات الإستغلال الهدام التى قامت بها الدول الاستعمارية لإستغلال الثروات الإفريقية دون محاولة للنهوض بالأفارقة أنفسهم ـ أصحاب البلد الأصليين ـ على أنها عمليات إقتصادية حضارية بناءة، وصوروا ما قامت به الشركات والحكومات الإستعمارية من مد خطوط السكك الحديدية مثلاً من مناطق الإنتاج الصناعى إلى الموانى ومناطق التصدير دون مراعاة للكثافة السكانية ولمصالح السكان على أنها أعمال عمرانية لا مثيل لها، ولم يُشيروا لما أصاب الأفارقة وثقافاتهم ومدنيتهم ونفسياتهم وثروات بلادهم من أضرار وتناسوا عامل الزمن وغيره فأبرزوا النتائج العمرانية وما تم فى مجال الثقافة والطب والعلاج.. كأنها أعمال بطولية متناسين السنوات الطويلة التى إنقضت وما كان يجب أن يتحقق فيها من تقدم حقيقى وتعمير.

ولذا فالباحث مطالب دائماً **باليقظة** حين يرجع لكتابات هؤلاء الكتاب، ويجب أن يكون ملما بحقيقة الكاتب، الذى يرجع له، وثقافته وميوله وإتجاهاته الخ...

والاعتماد على الوثائق ومحاولة تحليلها يجنب الباحث من الوقوع فى كثير من الأخطاء، ولذا يجب أن تكون لدى الباحث **ملكة النقد والتحليل**، أو ما يمكن أن نعبر عنه (بفن نقد وتحليل المصادر) أو كما قال الفيلسوف الفرنسى تين هردر (Herder) «القدرة على التفسير والوصف»(١).

ويُعبر البعض عن هذا «بانه مطالب بأن يقرأ ما بين السطور» والمقصود من ذلك هو أن الباحث لا يجب أن يقرأ الوثيقة أو المادة العلمية قراءة سريعة عابرة كمن يقرأ صحيفة يومية لمجرد معرفة الأخبار العامة فلاتكاد تستوقفه سوى بعض العناوين البارزة فى الصحيفة اليومية - لكن كل لفظ أو عبارة يقرأها تستوقفه للتساؤل والبحث عن مدلولها، والمقصود منها سواء ذكر صراحة أو لم يذكر والدوافع من ورائها.. هذا على أن يضع فى الاعتبار أن للدبلوماسيين ورجال السياسة والكتابات الرسمية من العبارات ما قد لا يكون مدلولها الحقيقى واضحاً فى ذهن القارىء العادى(٢).

ويذهب المؤرخ هردر (Herder) إلى «أن المؤرخ هو الذى يرى فى التاريخ ليس مجرد المجرى الخارجى للأحداث، بل يسعى بدلاً من ذلك **لرؤية روحه**، وهو وحده الذى يستطيع أن يكتشف الروح الكامنة وراء احجبتها واقنعتها»(٣).

«إن المؤرخ - كما يقول - بخلاف المنطقى فمهمته لاتقتصر على المظاهر فحسب، **بل إنه يعلو عليها**»(٤).

كذلك يجب أن تكون لدى المؤرخ **ملكة الربط بين الأحداث المتعددة**،

---

(١) كاسيرر، ارنست: مرجع سابق ص ٥٣.

(٢) مثال ذلك ما اثاره تعبير (الجلاء عن ارض عربية أحتلت بالقوة) فى قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ المتعلق بوقف القتال بين الدول العربية واسرائيل فى عام ١٩٦٧ وما قيل عن ان القصد ليس (الجلاء عن الأراضى العربية كلها التى أحتلت بالقوة).

(٣) كاسيرر، ارنست: مرجع سابق ص ٩

ملاحظة: هردر مؤرخ المانى من مؤرخى القرن الثامن عشر

(٤) كاسيرر، ارنست: مرجع سابق ص ١٣٢ - ١٣٣

وقد عَبرّ عن ذلك الفيلسوف الألمانى فون همبولت (Von Humboldt) بقوله «إن مهمة المؤرخ تحتاج إلى إدراك للواقع بالإضافة إلى الخيال الخلاق الذى يستطيع وحده ربط الوقائع المنعزلة والمنتشرة فى نطاق واسع بعضها ببعض فى وحدة حقيقية»(١).

إن التاريخ لا يقدم - كما يبدو لأول وهلة مشهداً أو مشاهد لأحداث متنافرة بل إنه **رواية مترابطة الفصول**، ويكمن السر فى قوتها فى هذا الترابط المتين بين فصولها - فكل ظاهرة لعلها إنعكاس لأخرى وهكذا.

هذا ويجب أن يكون الباحث فى نفس الوقت مستعداً **لتقبل آراء الغير ووجهة نظرهم** دون أن يضيق بها بل وأن يكون مستعداً للأخذ بوجهة النظر المغايرة لما كان يعتقده هو - إذا وجد من القرائن ما يؤيد وجهة النظر المعارضة لرأيه وما يرجح صحتها.

وهذا ملكة هامة يجب أن تتوفر لدى المؤرخ وهى ترتبط (بالعامل الزمنى) أو **الحاسة الزمنية** فهو يتعرض لأحداث حدثت فى أزمنة سابقة مغايرة لزمنه من حيث الظروف الإجتماعية، والأفكار السياسية السائدة فى المجتمع والمعتقدات والمبادىء المتعارف عليها فى هذه الأزمنة الخ...

وهو لا يجب أن يقيس الأحداث ويربطها بأفكار وعلل ومقاييس أستُخدمت بعد. أو بمعنى أصح أن المؤرخ يجب أن يَحذر تفسير **الأحداث الماضية** وتعليلها بالأسباب والعلل التى لم تكن موجودة فى زمنها لكنها قد تكون بارزة واضحة **اليوم - فهو لا يجب أن يجرى فى عقول الناس فى الماضى ما يجرى فى عقولنا اليوم** دون مراعاة لفارق الزمن.

مثل ذلك ما يردده العديد من الكتاب من أن الدافع التى دفعت محمد على للتفكير فى مد إدارته للسودان وإرسال حملاته لبسط سلطانه على هذه البلاد -

---

(١) نفس المرجع ص ٣٣.

رغبته فى السيطرة على منابع النيل الإستوائية ليكون النهر من منابعه حتى مصباته تحت سيطرته.

وقد تكون فكرة التحكم فى هذه المنابع وإقامة المشاريع عليها مما بُحثت فيما بعد ـ لكن لا يُقبل هذا الأمر فى عهد محمد على لسبب بسيط هو أن منابع النيل الإستوائية لم تكن قد كُشفت بعد ولم يتم كشفها إلا فى عصر الخديوى إسماعيل.

وإن كان الرحالة وادنجتون (Weddington) مثلاً قد أشار إلى طموح محمد علي واطماعه فى أن يكون سيداً على سكان وادى النيل ومن يشربون من مائه من الحبشة حتى البحر المتوسط[١].

إلا أن مسألة التحكم فى مشروعات الرى على النيل التى رددتها المراجع المتعددة لم تخطر أبداً على عقل محمد على أو عقول معاصريه[٢] ومثال ذلك أيضاً ما ترديده الكتب عن «المثل الأعلى للفضيلة والحرية الذى يُنسب للرومان» فالحقيقة إنه كما ذكر فستل دى كولانج (Fustel de Coulanges) فى كتابه «المدنية القديمة» الذي درس فيه العبادات والقوانين والنظم عند اليونان والرومان «إن القدماء لم يعرفوا الحرية فى حياتهم الخاصة، كما أنهم لم يعرفوا الحرية فى التعليم، أو الخدمة الدينية، وكانت شخصية الفرد ذات قيمة ضئيلة إذا قورنت بالسلطة الصارمة التى تكاد تكون مقدسة والتى تمتعت بها ما نسميه (بالدولة) أو الوطن، وكان المعتقد هو أن الواجب يقضى بأنه علي كل من الأخلاق والعدالة، والحقوق أن تفسح الطريق لصالح الوطن»[٣].

من هذا يتضح أن من أغرب الأخطاء الظن بأن الانسان قد تمتع بحرية

---

(١) Weddington: Journal of a visit to Some Parts of Ethiopia p. 91.

(٢) لمن يريد تفاصيل هذه النقطة يرجع إلى:
الجمل، شوقى: تاريخ سودان وادى النيل جـ ٢ ص ٢٣

(٣) كاسيرر، ارنست: مرجع سابق ص ٦٤

فى المجتمعات القديمة ـ كما نفهمها نحن اليوم ـ فهو لم يحصل حتى على فكرتها.

إذاً على المؤرخ أن يحاول بعقله وفكره أن يعيش العصر الذى يتصدى للكتابة عنه، ويحاول أن يُعايش الناس فى هذا العصر أفكارهم وتقاليدهم وعاداتهم، وهذا أمر ليس باليسير فهو يتطلب دراسة عميقة للأحوال السياسية والإجتماعية والاقتصادية وغيرها للعصر موضوع الإهتمام.

لكن مع ذلك فكما يذكر رانكى (L. Ranke) يجب أن يرى الأشياء من وجهة نظر أعلى من تلك التى يراها بها أولئك الذين عاشوا وسط الأحداث فالمؤرخ ـ كما يقول ـ يسعى إلى تحويل التاريخ العاصف كله إلى هدوء التأمل الخالص ـ فصفة التأمل الهادىء هى من أهم صفات المؤرخ(١)

وقد عبر عن نفس الفكرة الفيلسوف الألمانى بوركار (J. Burchardt) فى كتابه «تأملات فى تاريخ العالم» فذكر «أن التأمل سمة من أهم سمات المؤرخ»(٢)

كذلك رغم الموضوعية التامة اللازم توفرها فى المؤرخ ـ فإن هذا لايعنى بحال ما محو ذاتيته. فالشخصية التاريخية لا يمكن أن تفهم إلا عن طريق الشخصية الذاتية. ويستحيل هذا بغير تعاطف وثيق. إن الباحث الناجح هو الذى يتصف بالإتزان فلا تطغى كفة العاطفة عنده على كفة الموضوعية والحيدة، ولا تلغى تلك شخصية الباحث وآدميته بما فيها من عواطف وأحاسيس ومشاعر.

ومن ميزات الباحث فى التاريخ التواضع، فلا يحرص ابداً على أن يفضح علناً أقل هينات تصدر من الغير، وهو لايستخدم الفاظاً ولهجة فظة

---

(١) كاسيرر، أرنست. مرجع سابق ص ٦٤

(٢) نفس المرجع ص ٨٨

غليظة، فى الوقت الذى يُمجد فيه القليل الذى يقوم به هو - وقد ذكر انجلو وسينوبس «إن العالم دى كانج كان يقول عن أعماله بكل تواضع - تكفى العيون والأصابع لعمل مثلها وأكثر.. وإننى إذا كنت أدرس وأبحث فما ذلك لإيلام الآخرين»(١).

والمؤرخ كغيره من المتصدرين للبحث العلمى يجب أن يتصف **بالقدرة على تنظيم المعلومات وتصنيفها** والاستفادة منها فى موضعها المناسب. وقد يكتسب هذا بالمران والتدريب - لكن يحتاج الأمر أيضا إلى عقل راجح وذكاء وقدرة على إدراك التسلسل بين الأحداث، وعلى المقارنة بينها والربط بحيث تكون سلسلة متصلة تؤدى الحادثة إلى أخرى.

ويُعاب على كثير من الكتابات التاريخية**أنها تفتقر لهذا التسلسل الزمنى** فيشوبها الاضطراب بحيث لا يستطيع القارىء أن يتتبع تسلسل وتتابع الأحداث تاريخياً، وأن يدرك مدى إرتباطها بعضها بالبعض الآخر.

كذلك فإن المؤرخ يجب أن يتميز فى كتاباته وطريقة عرضه للأفكار **باسلوب علمى سهل**، وبعبارات واضحة - فيجمع بين سلامة **اللغة، وسلاسة الأسلوب**، ووضوح الفكرة، وسنتعرض لهذه النقطة بالتفصيل فيما بعد عند الحديث عن كتابة البحث وما يراعى فى ذلك

هذه بعض الصفات التى يلزم أن يتصف بها المؤرخ - نذكرها على سبيل المثال لا الحصر.

واشير فى ختام هذا الفصل إلى الصفات التى ذكر فرنسيس بيكون (F. Bacon) أحد مؤسسى العلم الحديث إنه يجب توفرها فى الباحث فقال «عقل له من سرعة البادرة والقدرة على الشمول والإحاطة ما يكفيه للقبض على وجوه الشبه بين الأشياء، فى الوقت ذاته له من الرسوخ ما يكفيه لتعيين وجوه

---

(١) انجلو وسينوبس. مرجع سابق ص ١٠٤

الإختلاف الدقيقة والتمييز بينها.. عقل وهبته الطبيعة الرغبة فى البحث، والصبر على الشك، والتوق إلى التأمل، والتبصر قبل التأكيد، والإستعداد لإعادة النظر، والحذر الشديد فى التصنيف والترتيب.. عقل لا يأخذ بما هو جديد ولا يعشق ما هو قديم، ومقت كل أنواع النفاق»(١).

(١) مالك، شارل وآخرون: مرجع سابق ص. ٦٢، ٧ نقلا عن.
McClure, Mathew Thompson: Bacon Selections (London, 1928), pp. 9-10.